

تأليف
أبو بكر أبو بكر عبد الرازق

الطبعة الثانية



الناشر الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة

إهداء

إلى روح أبى !

إليك أيها الروح الطاهر : ذكرى خالدة كخلودك...

... ذكرى الابن لأبيه ...

والأب يحيا عمره فإن قضى ...

... لم يمت من عاش فى بنيه ...

ولدك

أبو بكر أبو بكر عبد الرازق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى

كيف عرفت الغزالى ــ أثر الاحياء فى نفسى ــ كلمة عن التصوف ــ كيف عالجت المنقذ من الضلال

صحبت الغزالى فى كتبه ، فعشت وإياه حيناً من زمان ، فكلفت روحى بحبه ، وأصبح بينى وبينه فى الله سبب . فاليوم إذ أنشر للناس « منقذه » إنما أؤدى ديناً على فى حقه وجب ؛ ودين الغزالى أجل من أن يؤدى ، ولكن هو جهد المقل ، والوفاء بما قدر .

لقد فتح الغزالى أمامى آفاقاً واسعة ؛ عرفته فصرفنى عن لهو الشباب ، وأدبنى فأحسن تصوير الأدب . علمنى كيف أعيش فى نفسى مصداقاً لقوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فلم أنطو على نفسى ، كما يفعل بعض الشباب فى عزلة حزينة ، بل أردت ألا يجرفنى التيار ،

كما يعيش أكثر الخلق اليوم فى غمرة ساهين ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم وهم فى أنفسهم لا يبصرون . فحبب إلى العزلة والبعد عن الناس ، لا استيحاشاً وخروجاً عن طور الإنسانية ، ولكن سعياً وراء الإصلاح ما استطعت ؛ إصلاح نفسى أولا ، ثم إصلاح غيرى بعد ذلك إن استطعت إلى ذلك سبيلا. فبدلت بمجالس القوم ، مجالس آخرين صالحين ، يعقد الغزالى مجلسهم فى كتبه ؛ فأعيش مع الصحابة والسلف الصالح ، أستمع إلى حوارهم وحكمهم ؛ وأعيش فى جوهم ، وأستفيد من حكمهم خيراً فى أمور دينى ودنياى . فكنت كمن بدل الغالى بالرخيص بل كسبت أشياء وماخسرت شيئاً . أنصرف عن متع الحياة ماقدرت ، لأنعم بشىء أكثر متعة ؛ سكون نفسى المطمئنة إلى الله ، وإنصات عقلى إلى حديث الغزالى ، والتسامى بغرائز الشباب إلى ما يجب أن يكون ، فى حدود الجهد والطاقة . ولايزال هذا الجهد فى ازدياد مع الأيام ، لمن أراد وجه الله ، ولاتزال تلك الطاقة فى اتساع ، حتى يجد الشباب فى نفسه ما قاله المصطفى عليه السلام : روائح الجنة فى الشباب.

إن للغزالى علىّ فضلا ، ولى عنه مع الشباب حديث ؛ أسوقه لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

تبدأ معرفتى بالغزالى ، منذ سنوات عدة ، وماكان عهدى وقتذاك من الصبا ببعيد . أحسست فى نفسى نزعة دينية ، فرحت أتلمس فى كتب الدين ما يقرأ وما أجد فيه شفاء لنفسى الفتية ؛ وكنت أشعر برغبة صادقة فى أن أنمى هذه الرغبة ما استطعت ، وأتجه بها الاتجاه العلمى الصحيح ، وكانت آمالى أكبر من عقلى ، ورغبتى تربى على جهدى ..

وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً
لقلبك يوما أتعبتك المنــــاظر
رأيت الذى لاكلّه أنت قادر
عليه و لا عن بعضه أنت صابر

وكنت أسمع الكثير عن السيد جمال الدين الأفغانى والأستاذ الإمام محمد عبده — يرحمهما الله — ثم وقع فى يدى ذلك الكتاب القيم الذى ألفه رشيد رضا — تلميذ الأستاذ الإمام — فى سيرة أستاذه الإمام ،

وفيه عرض جذّاب كذلك لحياة حكيم الإسلام ، السيد جمال الدين الأفغانى ؛ فأقبلت على الكتاب ، وكلما مضيت فى القراءة . ازددت فى نفسى انشراحا.

لقد كانت نزعتى الدينية ، ترغب فى صورة خارجية ، تطل منها وتنفذ إلى الخارج ، وتنفس عن نفسها بعض الشىء ، فكان لها هذا فى سيرة الإمامين الحكيمين !

سكنت نفسى إلى هذه الصورة التى كونتها عن الإمامين ، وارتضت بهما قدوة ومثالا ، وكان لهذه الفكرة الأولى ، أكبر الأثر بعد ذلك ، فى جعلى أقبل على دراسة كتب الأستاذ الإمام وكلّ ماخلفه من آثار ، وما أثر عن الأفغانى كذلك.

وخلال مطالعتى فى سيرة الأستاذ الإمام ، عرفت شيئاً كثيراً عن تصوف الفتى الشيخ محمد عبده ، وتربية أستاذه الأفغانى له هذه التربية الروحية العالية ، كما هداه الطريق من قبلُ شيخه درويش خضر.

ولما كانت صورة الأستاذ الإمام فى مخيلتى هى ما قد عرفت ، لذا أحببت طريقاً سلكه ، وذلك

هو الحافز الخارجى ، يضاف إلى ذلك نزعة لى فى الدين مكبوتة ، وذاك هو الدافع الداخلى ، فإذا بى قد أقبلت على نفسى أسائلها :

ما التصوف ؟ وأين أجده ؟ وكيف سبيلى اليه ؟

لو كان الإمام حيا ، لشفى نفسى مما تجد ، أما والإمام بعيد منى على قرب ، فأنا كالضارب فى البيداء الواسعة ، لا أعرف لرجلى قبل الخطو موضعها . أريد التصوف ولا أعرف سبيله ؛ إن كتبه لعدة ؛ ولكن ، بأيها أبتدىء ... ؟ لبثت كابراهيم ، والكتب الكواكب ، ولكن أربى ماكان منى ببعيد !

لقد استجاب لى الأستاذ الإمام ، فأسلمنى إلى الإمام الغزالى بدافع من الإلهام ، فإذا إحياؤه الخالد بين يدى ، وإذا بى قد أقبلت عليه ذلك الإقبال الذى ستدرى بعد قليل حديثه . ومن ثم كانت معرفتى بالإمام الغزالى — إمام المتصوفة — على يدى كتابه الخالد « إحياء علوم الدين » بعد أن قدم له الأستاذ الإمام محمد عبده فى نفسى كما رأيت.

كان ذلك فى بدء مرحلة الدراسة الجامعية؛ ولبث

الإحياء يصاحبنى طيلة سنى الدراسة فيها ، أوليه عناية
خاصة به ، حتى فرغت من كل ماطبع للغزالى من
كتب ، وما كدت أفرغ من إحيائه الخالد ؛ وسألبث
أداوم فيه النظر مادمت حيا !

والواقع أنى إذا كنت سأخص الإحياء فى هذه
المقدمة بقول ، فسبب ذلك أن الإحياء هو أصدق
صورة للإمام الغزالى ، تعطى فكرة عنه لمن أراد
صحيحة . ولن أتكلم عن ذلك الكتاب القيم بما فيه
من نفائس ، فقد أفردنا لهذا كتاباً خاصاً بعون من
الله ، بل سأمر باشارة عابرة إلى تاريخى مع الإحياء ،
فهو وصف لحالتى النفسية فى ذلك الطور من حياتى ،
وكيف كان التصوف لها دواء ، وكيف كان الغزالى
الطبيب الصوفى الذى يشفى أنفسا وقلوبا ، ومن ثم
أستخلص من ذلك عبرة للشباب ، أدعوه بعدها إلى
مادعوت اليه نفسى ، إن وجد فى قولى مايرضيه .
فهى تذكرة ، تعيها الأذن الواعية ، وما يتذكر إلا
أولو الألباب . وأمهد لهذا بكلمة قصيرة .

يظن كثير من الناس أن التصوف هو هذه البدع
المنتشرة التى يبرأ منها الدين ، وأن المتصوفة هم أولئك

الذين يظهرون فى الموالد بعمائمهم الضخمة – ولاسيما
الخضراء منها – والمسابح التى تصل إلى الأرض
طولا . فهم ينشدون التصوف فى الموالد والأذكار ،
وهم إذ يرون ما فيها من بدع وانتهاك لحرمة الدين
يظنون بالتصوف الظنون . أوليس التصوف فى نظرهم
هو ما يفعله هؤلاء ؟ وهم إذ يرون ما يفعله هؤلاء
المبتدعة من أمور – ولاسيما أهل هذه الفرق المنتشرة –
يكوّنون عن المتصوفة فكرة ! والواقع أنهم لايعرفون
التصوف ، ولايعرفون عن المتصوفة شيئاً ؛ ولوعرفوا
التصوف الصحيح ، لعرفوا من هم المتصوفة ، ولكنهم
يعرفون التصوف بالرجال ، ولايعرفون الرجال ،
بالتصوف ؛ إذ هم لايعلمون عن التصوف شيئاً ،
وفاقد الشىء لايعطيه .

ليتهم يسمعون ما قاله الغزالى عن هذه الطريقة
فى منقذه من الضلال ! «وبالجملة فماذا يقول القائلون
فى طريقة أولها وهى أول شرائطها تطهير القلب بالكلية
عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى
التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بذكر الله ،
وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى» . ليعلموا أية

فكرة خاطئة عن التصوف يعرفون !

وليتهم يحيطون علما بما ذكره الغزالى فى الصوفية إذ يقول : « الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق ؛ بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغير شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلا . فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » ليعلموا أية فكرة مشوهة هم عن الصوفية آخذون . وإذاً لاستطاعوا أن يحكموا حكماً صحيحاً على أولئك الذين يسيرون فى الطرقات بعمائمهم الضخمة ، ومسابحهم الطويلة ، ولوجدوا لهم أى تسمية أخرى يطلقونها عليهم ، غير كلمة «صوفية» . وإذاً لعرفوا أيضاً ماذا يطلقون على هذه الطرق المختلفة ، طرق مدعى الصوفية !

أما من عرف التصوف ، فعرف أهله ، فهو يشهد له ولهم . بماذا ؟

يقول صاحب عوارف المعارف مانصه « [1] ثم إن ايثارى لهدى هؤلاء القوم — يعنى الصوفية — ومحبتى لهم علما بشرف حالهم ، وصحة طريقتهم ، المبنية على الكتاب والسنة ، المتحقق بهما من الله الكريم الفضل والمنة ، حدا بى أن أذهب عن هذه العصابة بهذه الصبابة ، وأؤلف أبواباً فى الحقائق والآداب معربة عن وجه الصواب فيما اعتمدوه ، مشعرة بشهادة صريح لهم فيما اعتقدوه ، حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم ، وستر بزيهم المتسترون وفسدت أعمالهم ، وسبق إلى قلب من لايعرف أصول علمهم سوء ظن وكاد لايسلم من وقيعة فيهم وطعن ، ظنا منه أن حاصلهم راجع إلى مجرد رسم ، وتخصصهم عائد إلى ! مطلق اسم .... الخ » .

وقد شهد الغزالى للصوفية كذلك — كما سترون فى المنقذ — بأنهم أرباب أحوال ، لاأصحاب أقوال ، وأيقن ذلك حين سار فى طريقتهم ، عن عقيدة ، ومشاهدة ؛ فأمعن النظر فى شهادة ذلك القطب الجليل فى طريقة هؤلاء ، وتأمل كذلك ما جاء فى قول

(١) عوارف المعارف للامام السهروردى

السهروردى وكيف نبى أن يكون حاصل الصوفية راجعاً إلى مجرد رسم ، أو أن يكون تخصصهم عائداً إلى مطلق اسم ! وإنما ذكرت ذلك لسبب.

فقد اطلعت مرة على إحدى المجلات المصورة المنتشرة عندنا ، فإذا فى إحدى صفحاتها صور مختلفة لبعض السادة المتصوفين ، وهم بملابسهم المختلفة الأشكال ، وأعلامهم وطبولهم ، وقد رفعوا أيديهم يقرءون أورادهم الخاصة ، فأسفت لذلك المنظر أسفاً شديداً ، أسف من يعرف قيمة شىء غال ، ويراه يعرض العرض الرخيص ، الذى يتنافى وحقيقته ، ومن يعرف قيمة الشىء يعمل بقول الشاعر

حرصى عليك هوى ومن يحرز ثمينا يبخل

فأنت لاتستطيع أن تمنع نفسك الضحك حين تطلع عليك هذه الصورة ، وتسائل نفسك : فى أى عصر نحن ؟ وماذا يفعل هؤلاء ؟ أذاك هو التصوف وأهكذا يفعل أهله ؟ لا ! جل التصوف عن هذا «ولكن أكثر الناس لايعلمون» فما كان التصوف بارتداء زى خاص ، أوقرع طبل وزمر ؛ إن التصوف علاقة

بين المرء وربه لايعلمها إلا هو ؛ ماكان عرضا لزى ، أو دعاية لطريقة ، وماكان المتصوفة حقاً ليرضوا بأن تنشر صورهم للناس ، كما يفعل الممثلون وقد تجمعوا «كالأنعام بل هم أضل سبيلا» ! وإذا فرضنا المحال ، وكان التصوف هو هذا ، إذاً لكان من الخطأ البين أن تؤخذ للمتصوفة صورة على هذا الوضع . فإن سر الصوفى كالمعنى ، وأوضاعه الخارجية حين يرفع يديه لله إذ يتلو ورده وما إلى ذلك ، كاللفظ ؛ واللفظ إنما يطلب من أجل المعنى ، إذ المعنى لاسبيل إلى ظهوره عادة إلا بالألفاظ ؛ فإن كان اللفظ لايدل على معناه ، فهو عديم القيمة وكذلك حركات الصوفى ومظهره ، إنما هى لفظ الصوفى ، لامعناه ، وهى لاتدل وحدها على شىء. فإذا أراد الصوفى – لا المبتدع – أن يعرض تصوفه للناس ، لم يعرضه بضاعة أو دعاية ، بل دعوة فى الله . فلا يعرف الناس أنه متصوف بحركات يديه ، وما يلبسه من ثياب غريبة ، وما ينشر له من صور فى المجلات تحت عناوين ضخمة تشير إلى أنه وقومه يؤدون أورادهم . لمن ؟ لله ! فلا يسمع الناس من القراءة الخاشعة شيئاً ، لأن الصورة لاتنقل الدعاء ؛

وإن رأوا شكلا عجباً : ملابس غريبة ، وأيديا مرفوعة ، فيكون الضحك بدل البكاء ، وتكون السخرية بدل الخشوع والابتهال ، ويكون تصوير الفكرة الخاطئة عن التصوف وأهله « فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون » .

أما الخاصة ، فهى وحدها التى تعرف معنى التصوف وقيمته ، وإن كان أكثر الذين أوتوا شيئاً من العلم ، لايعملون بما يعلمون . والتصوف علم وعمل، وإن كان ليس من الضرورى أن يكون العمل به انقطاعا عن الدنيا ، وقطع الصلة بأهلها تماما ، كما يأخذه على ذلك البعض، بل هو على حد قول الشاعر:

قد سلك البلاد ثم عادا   ليخبر القوم بما استفادا

وكذلك فعل الإمام الغزالى حين خرج من عزلته وعاد ينشر العلم ثانية بعد أن كان أقلع عن ذلك ، وسترى ذلك موضحاً فى موضعه من الكتاب . فالتصوف إفادة للشخص ولغيره ، وهو أبعد ما يكون عن فكرة الأنانية والانقطاع ، وإن كانت الوحشة فيه لسبب، وهى غير مقصودة لذاتها . ولاداعى

للافاضة فى هذا الآن ، وحسبنا أن نذكر أن التصوف للمؤمن خير قرين ، والروح خير علاج . ولأرجع إلى حديثى مع إحياء علوم الدين كما وعدت :

وجدته كتابا ضخماً فى مجلدات أربعة . فأقبلت على الفهارس أستطلع موضوعات الكتاب من العناوين فشاقنى ما قرأت ، ووددت لو استطعت أن أقرأ هذه المجلدات كلها فى جلسة واحدة . لقد وجدت أخيراً ما كنت أنشده ، وارتاحت نزعة لى فى الدين محرومة، إذ وجدت ما يشفى حرمانها، ويغذيها بالحديث الحبيب.

كان ذلك مساء ليلة ، حين أقبلت بكليتى على الجزء الأول ، وفى الكتاب الأول من ذلك الجزء . يتكلم الإمام الغزالى عن العلم . فكان ذلك خير بداية ، وأطيب استفتاح ، وأفضل توجيه من الإمام الخالد الذكر ، لعشاق الحقيقة الخالدة ! ولحجة الإسلام أسلوبه الخاص فى العرض والتعبير ، فإذا بى قد نسيت نفسى وما عدت أشعر بشىء مما حوالى، سوى شىء واحد : الإمام الغزالى يتحدث إلى وأنا أنصت له . لم أكن أقرأ ، ولكن كنت أنصت بسمعى وقلبى وكل جوارحى لما يتلوه على الإمام من آيات بينات . لقد

بعث الغزالى حيا أمامى ، وأصبح يعيش فى عصرى بل فى حجرتى وأمام مكتبى ، ورحت أنا أرجع القهقرى وأخترق من حجب الماضى أجيالا ... إلى عصر الغزالى ، لأعيش فيه بالروح وبالجسد وقد نسيته . لم أكن فى مكتبى بل فى حلقة من هاته الحلقات التى كان يعقدها الغزالى للتدريس ، وقد خلت الحلقة إلا منه ومنى ! .. لقد حيا أستاذى ، فقدر أن يفهمنى وفنى تلميذه ومريده ، فاستطاع أن يفهم منه ما يقول. والأرواح جند مجندة ، ما تعارف منها ائتلف — وقد كان — بالرغم من المسافة والزمن . وما ذلك على الله بعزيز .

وفى ذلك يقول الصوفية : إن النفوس التامة الكاملة ، إذا حان حينها وفارقت أجسادها ، تبقى فى شغل بتأييد النفوس الناقصة المجسدة حتى تتم هذه وتكمل ، وتتخلص من حال النقص ، وتبلغ إلى حال الكمال فى حدود طاقتها . كما أن الأولى المؤيدة ، ترتقى هى بدونها إلى حال من الكمال أشرف وأعلى ، وإن إلى ربك المنتهى . ويضربون لذلك مثلا : الأب الرحيم ، والأستاذ الرفيق ، وكيف يعلمان التلامذة والأولاد ،

ويخرجانهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلوم ، والمعارف ، فيتم تعلم التلاميذ والأولاد ، كما يكمل الأساتذة باخراج مافى قوة نفوسهم من علوم ومعارف وحكم ، إلى الفعل والظهور ، اقتداء بالله تعالى ، وتشبهاً به فى حكمته .

وإن روح الغزالى لتؤيد مريديه بإذن الله ، فيسعى نورها بين يدى كتبه ، ويعم هذا النور قلوب تلامذته الروحانيين ، فإذا بهم يعقلون بقلوبهم من كتبه ما لايعقله غيرهم ، مع رجاحة فى العقل ، وسعة فى العلم ، وسلامة فى التفكير . وإذا بنصيب العقل من كتب الإمام —على عظمه— ضئيل إذا قيس بما تصيبه الروح ، وتنعم به النفس ، روح تلميذه الواثق به ، ونفس مريده الذى اطمأن اليه فى الله ، وجعله إمامه.

والغزالى أستاذ للعقول ، وأستاذ للقلوب ، فهو البحر من أى النواحى جئته . وقد يفهم القارىء العالم منه أشياء وأشياء ، ولكن يكون على قلبه أكنة أن يفقهه . ومن العلم كهيئة المكنون ، لايعلمه إلا العالمون بالله تعالى ، كما يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام . فلو أدرك بقلبه ، كما فهم بعقله، لوجد أمامه من واسع

الآفاق فى روض الغزالى ما يجعله يقول : لقد كنت فى غفلة من هذا . أجل ! وبصرك اليوم حديد . ولولا أن كشف لك قلبك غطاءك لظللت عنه تحيد .

إن قراء الغزالى يختلفون « فمنهم شقى وسعيد » . الشقى من أخذ الغزالى أخذ الفلاسفة ، فيذهب اليه كمن يحج إلى البيت العتيق ، ليستوثق من سلامة بنيانه ، ويرجع بصدى حرمانه . والسعيد من فهم الغزالى عقلا وقلباً ، فحج وآب برحمة الله ورضوانه .

إن رسالة الروح عند قوم هباء ؛ والروح من أمر ربى « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

وإن رسالة العقل وحدها عند قوم – يضيقون رحمة الله – هى الكفاية والغنى . وما أوتينا من العلم إلا قليلا « فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا » .

وفى ذلك يقول الغزالى [١] « العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات » .

إن الروح إذا خلصت لله ، فأمدها الله بنوره ، وأيدها عقل مثقف يزن الأمور بسلامة تفكيره ، قدر

(١) احياء

الإنسان أن يفعل عجباً . وهذا المصطفى عليه الصلاة والسلام يقول: إنه إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينى قلبه . وقد تناول الغزالى هذه العين بالشرح ، قال : « [١] خلقت تلك العين فى قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية ، فصار لايبصر بها ، ولايتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن قلبه » .

ويقول أيضاً : « [٢] ومثل هذه المشاهدة لامطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم »

أما الذين عميت قلوبهم فهى فى غطاء عن ذكر الله ، فسيجد أولئك يوماً صدق ما نادى به الصوفيه، حين يقال لمن قامت قيامته منهم « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » . ستبصر عين فؤاده وهو يودع الدنيا « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » وإن كان أصحابنا يبصرون بهاته العين وهم أحياء، وذلك فضل الله و « إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » .

(١) احياء
(٢) احياء

أذن مؤذن الفجر فأفقت ... رب أين كنت ؟ ماذا قرأت ؟ ما بال نفسى تهتز ؟ لقد ملك على الإمام حالى ! سمعت منه حديثا لا ككل حديث ، وعقلت أشياء ، ماكنت من قبل أدريها . تفتحت فى نفسى آفاق ، وشعرت بظمأ ، ظمئى إلى طلب الحقيقة . لقد شعرت بأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وهكذا زادنى الغزالى فى العلم حباً ، العلم الذى ينفع صاحبه . وليلة ذاك ، أخذت على إمامى بظهر الغيب عهداً ، أن أطلب العلم ولا آلو فى طلبه جهداً . سأطلبه مادمت حيا ، وحتى يودعنى الله بطن الأرض لحدا .

وأمضيت العهد بدمعى ...

وليس الذى يجرى من العين ماؤها

ولكنها روحى تذوب وتقطر

فخيل لى أن الغزالى يبتسم لى رضاء ، فقمت إلى الصلاة وقد شعرت شعوراً ما شعرت بمثله قبلا ... إن الله معى .

قمت إلى الصلاة ، وما كاد مؤذنها ينتهى ، أستلم القبلة وأقرأ خاشعا « ربنا إنك تعلم ما نخفى

وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء » . لقد أشهدت الله على ما فى نفسى ، ودعوته أن يشد أزرى ، ويشرك الغزالى فى أمرى ، كى أسبحه كثيراً وأذكره كثيراً « والله بصير بالعباد » .

لقد صليتها صلاة ، وكأنها كانت صلاتى الأولى وجدت لتلاوة القرآن حلاوة ، وأحسست فى القلب خشوعا . لقد كنت أجد للقرآن حلاوة من قبل ، وما كان قلبى للرحمن عصياً ؛ ولكن كأن حلاوة له سبقت – إذا قستها إلى ما أشعر به الآن – لم تك شيئاً ؛ وكأن خشوعا لله سبق ، ماهو بالخشوع ، حين تأخذنى المقارنة .

وهكذا انتهت ليلتى الأولى مع الغزالى . ليلة كليلة القدر ، فى حياتى خير من ألف شهر ؛ سلام هى حتى مطلع الفجر .

جاءت الليلة الثانية ....

والثالثة .... وهكذا .... دواليك ، ، خمس سنوات .

إن هذه المقدمة لتضيق إذا أردت أن أذكر كل ما أحب قوله . ولا يسعفنى المجال المحدود إن أخذت

فى شرح كل ما استفدته من الغزالى وإحيائه الخالد ، فلذلك موضعه من كتاب آخر باذن الله ؛ ولكن حسبى الآن إشارة عاجلة إلى ما يتصل بموضوعنا بسبب .

لقد أخذت أشعر كلما مضيت فى قراءة « الإحياء » بتسلط حالة غريبة على ، زرع الغزالى بذرتها فى نفسى ، وتعهدها بالسقيا من إحيائه وكتبه الأخرى .

لقد أخذت « مراقبة النفس » تسيطر على بشكل لا أستطيع الفرار منه إن أردت ، وأصبح الغزالى يسيطر على فى الله حتى غدا شأنى وإياه ، ماقاله أخ لى من قبل :

وإنى لأستحييك حتى كأنما
على بظهر الغيب منك رقيب

لقد كان درس الغزالى فى محاسبة النفس ومراقبتها من أقوى الدروس ، وأشدها فى نفسى أثراً . نعم سمعنا عن فلاسفة كثيرين أنهم قالوا بوجوب مراقبة النفس ؛ وضرب على هذا الوتر علماء النفس كذلك ، وأساتذة الأخلاق ؛ وقديماً قال سقراط : أعرف نفسك . ولكن لم يخرج النغم من عند هؤلاء ، بحيث تمتزج به النفس طوعاً أوكرها ، كما انبعث النغم من

الغزالى ، فاستجابت له أنفس وقلوب . وسر ذلك سهل يفسره قول للغزالى نفسه « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب » . ففرق بين معلم أخذ علمه عن الله كشفاً كالغزالى « وعلمناه من لدنا علما » — وفى الرسالة اللدنية للإمام الغزالى نجده قد تناول هذا العلم وقربه إلى الأذهان بشكل لايبارى — فهو يعتقد ما يقول ، ويعمل به ، ويبصر فى نفسه ، ناظراً آيات ربه الكبرى ؛ ومعلم آخر عظيم العلم لدى الناس ، وإن كان عند الله ، وبالنسبة لمن علمه الله ، ماأوتى من العلم إلا قليلا ، وهو قلما فعل ما يقوله ، وإن فعل فهو كبير بالنسبة للناس ، ولكن صغير بجانب الغزالى وأقرانه ، فان « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »

إن الغزالى إذا تحدث اليك فى مراقبة نفسك ، فلن يظهر لك علمه الواسع وحججه وبراهينه فحسب ، بحيث يؤثر فى عقلك ، فتسمع له وتؤمن بما يقول ثم تنصرف عنه بعد ذلك ، كما يحدث فى الحياة إذ نؤمن بأشياء كثيرة ومبادىء لاحصر لها بعقولنا ، ثم يصرفنا عنها بعد ذلك صعوبة التطبيق أو ضرورات الحياة ، أو نفاق الحياة الاجتماعية وما إلى ذلك ، أى تعذر

التوفيق بين ماهو كائن وما ينبغى أن يكون — وعلم الفلاسفة وأساتذة النفس من هذا النوع الدنيوى — بل سيترك الغزالى نفسه تنساب فى نفسك ، وسيجعل عقله قطعة من عقلك ، وستشعر بخفوق قلبه مع قلبك .

ويخفق صدرانا خفوقا كأنما
مع القلب قلب فى الجوانح ثان

فهو حديث قلب لقلب ، تخرج الكلمة من هذا لتقع فى ذاك ؛ فاذا نفسك قد سمت ، وإذا عقلك قد اطمأن ، وإذا قلبك قد رضى ، لقد قربت منه رشداً . وهكذا تجد نفسك دون أن تشعر أو تريد ، قد أصبحت عليها رقيباً . لقد تفجرت خشية الله فى قلبك ، فلن تتبع هواك ، ولن يكون أمرك فرطاً ، بل حسبك «كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» .

إن السر الذى يملك به الغزالى أعنة النفوس هو خشية الله و«إنما يخشى الله من عباده العلماء» وهو محرك عنانك بهذه الخشية ، وسائر بك فى طريق الترقى من طور إلى طور ، ومن حال إلى حال ، حتى يجعلك يوما من الذين «هم من خشية ربهم مشفقون»

ومن هذه الخشية ستتولد مراقبة النفس عندك ؛ ما كان ذلك بحديث يساق ، وعلم يبهر ، أو لسان يقنع ، وإنما «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم»

وإنى لأستدل على قوة أثر الكلمة إذا خرجت من القلب فوقعت فى القلب ، بتلك القصة التى نعرفها عن نبينا عليه الصلاة والسلام ، إذ كان يرقد يوما تحت الشجرة ، وقد أخذ الكرى بمعاقد أجفانه الشريفة ، فمر عليه مشرك من صناديد قريش ، رأى الرسول نائماً ، وسيفه معلق على الشجرة ، فسولت له نفسه أمراً : مد يده إلى السيف فأخذه ، ثم أهاب بمحمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، أن أفق يامحمد! فأفاق الرسول ليرى الأعرابى على رأسه وقد شهر بيده سيفه . قال له الأعرابى : قل لى يا محمد ، من ذا الذى يعصمك الآن منى ؟ !

موقف ولاشك رهيب . ولكن لو كان فيه غير الرسول .

فتبسم الرسول ضاحكاً من قوله ، وقال :

الله ! ! !

فوقع السيف من يد الأعرابى ، وقد اعترته

رجفة شديدة؛ فأخذ المصطفى – عليه الصلاة والسلام – سيفه وقال له :

– ومن ذا الذى يعصمك الآن منى ؟

قال :

– عفوك وكرمك ! فعفا صلى الله عليه وسلم عنه

وهيا بنا ننظر : لماذا وقع السيف من يد الأعرابى المشرك عند ما تلفظ الرسول عليه السلام ، بلفظ الجلالة ؟ وما الذى هز عدو الله هذه الهزة وهو الذى لايؤمن به ؟

إن سر القلوب ، كسر الكهرباء ، لايعلمه أحد، وإن رأى من آثارها عجباً .

فهب ذلك الأعرابى مست يده إذ ذاك تياراً كهربائيا ، إذاً لارتعش وسقط السيف من يده أيضاً . وكذاك كان تأثير تيار قلب الرسول فى قلبه . ولكن رب سائل : إن قلب الرسول لاككل القلوب ، فمالك تقيس على ذلك قلوب البشر ؟ فأقول : إن لنا فى رسول الله لأسوة حسنة، وتلك الصفة لم تكن مقصورة على النبى عليه الصلاة والسلام لأنها من خصائص النبوة ، فهى مما اختصه الله به من دون الناس ، بل سر القلب

متيسر لسائر البشر ، والرسول فى ذلك قدوتهم ، وإن كان لا يصل إلى هاته المرتبة إلا الأقلون .

فعسير بلوغ هاتيك جـــداً
تلك عليا مراتب الأتقيـــاء

إنها لأولئك الذين يقتدون بالنبى عليه الصلاة والسلام ، ويتشبهون به فيما يمكنهم التشبه به من صفاته التى يشترك فيها وسائر البشر . إنها للصوفية ، إذ هم أرباب القلوب ، وأصحاب الأحوال ، وإن كانوا فى ذلك درجات « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات » وعلماؤهم ورثة الأنبياء ،وإن « لهم الدرجات العلى » . لقد جمعوا علم الدنيا والدين. إن عرفت هذا فاذكر الغزالى خاشعاً ، وقل لوريث الأنبياء : إن قلبك يهدى البشر !

ربما يظن بى البعض المغالاة فيما أقول ، ولكن حسبى أن من ذاق عرف ، ومن حرم انحرف ، كما كان يقول الأستاذ الإمام يرحمه الله . وأنا أمسك القلم عن الاسترسال فى هذه المعانى بأكثر من هذا ، وأقول ما قاله الغزالى : مالايدرك بالذوق ، لا يعظم اليه الشوق .

وإنى لأدعو الشباب ، أن يقبل على قراءة « الأحياء » ، وسيجد مصداق ماقلته فى نفسه ، فيتبين له أنه الحق . هذا إذا عرف كيف يقبل عليه بقلبه وعقله معا ، مع خلوص نيته لله ، فان الأعمال بالنيات ، والله يوفق دائماً من يريد وجهه ، فهو ولى المتقين « وهو يتولى الصالحين » . ولاتكن يا شباب فيمن ضل واتخذ من دون الله أولياء ، لايستطيعون نصرك ، ولا أنفسهم ينصرون .

إن الشباب المثقف يقبل على قراءة الفلسفة ، فلم لايقبل أيضاً على قراءة التصوف ، ويأخذه على أنه نوع من الفلسفة ابتداء ؛ فاذا مضى فيه ، أخذت كل نفس فيه قدرها ، وما هيأه الله لها وفقاً لاستعدادها . وآنئذ ستفتح أمامه آفاق واسعة ، يرى فيها من آيات الله ومن آيات نفسه ، ماكان عنه من الغافلين . فإن كل باب يفتح بمفتاحه الخاص ، ومفتاح النفس المطمئنة ، هو هذه العلوم والمعارف الربانية .

وفى كل نفس أبواب ثلاثة : باب للاطمئنان ، وباب للوم ، وباب للوسوسة والسوء .

والباب الأول هو الباب الذى إن فتحناه ، دخلنا

منه إلى النفس المطمئنة « يأيتها النفس المطمئنة » وهى أعلى مراتب النفس ؛ وتلك نفس الأنبياء ، والصديقين والأولياء ، والمتقين أولى الألباب .

والباب الثانى إن فتحناه ، ولجنا منه إلى النفس اللوامة ، التى ذكرها الله سبحانه فى سورة القيامة « ولا أقسم بالنفس اللوامة » . وتلك درجة وسط بين النفس المطمئنة والنفس الوسواسة الأمارة بالسوء ، وهى الطريق إلى النفس الأعلى منها ، ولايزال صاحبها كلما ارتكب فاحشة أو ظلم نفسه ، ذكر الله فاستغفر لذنبه ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصر على ما فعل وهو يعلم . وفى ذلك يقول الله تعالى « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » ويقول الحديث الشريف : « أنَّ من تاب من الذنب كمن لاذنب له » . فصاحب النفس اللوامة من « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » وهو بسبيل تجنب هذا اللمم أيضاً ، إذ تأخذه نفسه دائماً باللوم والتقريع ، حتى يبلغ الدرجة التى كتبها الله له .

والباب الثالث ، باب النفس الوسواسة التى

ذكرها المولى سبحانه فى سورة يوسف « إن النفس لأمارة بالسوء » . وهو الباب الذى يطرقه أكثر الخلق ، ويدخلون منه على نفوسهم ، فإذا دخلوه فماهم بخارجين منه ، إلا أن يشاء الله .

أما عن الباب الأول ، فقل من يستطيع فتحه إلا من ذكرنا ، ومفتاحه كما قلنا ، هو العلوم والمعارف الربانية . ولكن صعوبة الوصول لاتعنى الاستحالة ؛ فكل يستطيع أن يرتقى بنفسه من الدركات إلى الدرجات بإذن الله ، إن جاهد نفسه « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» . إنه الجهاد الأكبر ، جهاد النفس . ومن لم يستطع أن يصل إلى مفتاح هذا الباب ، ثم وضعه فى قفله ، ثم فتحه بعد ذلك ، فهو مستطيع شيئاً دون ذلك . فمفتاح هذا الباب ، هو العلوم والمعارف الربانية ، وهذا المفتاح لا يوضع فى قفله إلا بالمجاهدة ورياضة النفس . ووضعه فى قفله لايعنى كل شىء ، فعلى من « وصل » إلى ذلك أن ينتظر رحمة الله بعد ذلك ، فهو الذى يفتح عليه، الفتح المبين وقد يكون حظه فقط ما وصل اليه من « عرفان » المفتاح ، ومجاهدة القفل ، أما « فتح »

الباب فان « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

ولكن حسبنا أن فى باب الاطمئنان هذا «طاقات» من رحمة الله الواسعة ، لأنه لما كان كل طريق صعب ، يحتاج فى ولوجه وتحمل مشقته إلى ما يغرى بتحمل هذه الصعاب ، والوصول إلى فتح باب النفس المطمئنة لايبلغه إلا الأقلون ؛ لذا جعل الله جلت قدرته فى هذا الباب تلك الطاقات من رحمته ، تفتح بين حين وآخر ، فتهب نفحاتها على أولئك الذين يمسكون بمفتاح هذا الباب ، أولئك الذين يقرءون العلوم والمعارف الربانية ، فإذا هم يتعرضون لها ، ذلك حظهم من أمثال هذه القراءات ، وفى ذلك يقول الحديث الشريف « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » . ولايكون التعرض لهذه النفحات السماوية ، إلا لمن أمسك بذلك المفتاح بيده : العلوم والمعارف الربانية ، وهى مفتاح باب النفس المطمئنة .

ولو لم يكن لقارئ هذه المعارف ، سوى هذه النفحات الربانية ، تهب عليه بين حين وآخر ، لكان ذلك حسبه . فتجد قارئ التصوف ، إذ هو ممسك

مفتاح ذلك الباب بيده ، قد أخذت تهب عليه نفحات النفس المطمئنة ، وتشوقه إلى الصبر ، والمجاهدة ، ورياضة الخلق ، والنزوع نحو الكمال ،والإحسان، وما إلى ذلك مما لا يدخل تحت حصر «وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها» وفوق ذلك كله ، خشية الله.... فيها حلاوة ومرارة ،فيها خوف ورجاء ، فيها يأس وفيها أمل .

اليأس من الذنب حين يتعاظم فى القلب الذاكر، فإذا النادم يجأر :

تعاظمنى ذنبى .... !

ثم الأمل بعد ذلك فى الله ورحمته ، فإذا الآمل يقول :

.... فلما قرنته

بعفوك ربى كان عفوك أعظما

إنها خشية العارفين ، تلبسه حلة من السعادة ، يروق له شكله فيها ، حتى يود لو استطاع أن يبقى بهذا اللباس أبداً ، ويكون سعيداً . فان سأله الناس : لم ؟ لم يحر جواباً. إن مقياسه غير ما يعرفون. فان قال ربما ظنوا به الجنون ، وما به من جنة ؛ إن مابه معنى

ليس له فى كلام الناس من لفظ . إن به جزءاً مما قالته العرب فى الرسول عليه السلام: لقدعشق محمد ربه!

إن مفتاح النفس المطمئنة فى متناول الأيدى ، فى هذه العلوم والمعارف الربانية التى تجدها فى كتب الصوفية . فليقبل عليها الشباب وسيرى . وسيتعرض خلال ذلك لنفحات الرب . فليجرب قبل أن يرفض أو يقبل لى قولا . وإذا كان وضع المفتاح فى قفله لا يتم إلا بالرياضة الروحية ، وتلك قد تصعب عليه فى زماننا هذا ، فلا أقل من أن يمسك بذلك المفتاح وهو فى متناول يده ، وليقرأ فى التصوف إذن كما يقرأ فى الفلسفة – وسيرى فى تلك دروسا بليغة من الإمام الغزالى ونصائح عسى أن ينزلها قدرها حين يطالع ما كتبناه فى موقف الغزالى من الفلسفة مستقى من «منقذه» – فأقبل ولاتخف إنك من الآمنين .

والآن ننتقل إلى الباب الثانى من أبواب النفس : باب اللوم ، ذلك الباب الذى يوصلنا إلى النفس اللوامة .

هذا الباب أيسر من سابقه بكثير ، وهو فى متناول كل إنسان ولايلزمنا حتى نطرقه إلا ضمير ،

يصحو تارة ويغفو أخرى . لكن إذا طالت غفوته فتلك هى النفس الأمارة بالسوء . إنما قصدنا الضمير الذى تكون صحوته أكثر من غفلته (١) . ولكن كيف سبيلنا إلى باب اللوم هذا ، نقرعه فتأذن لنا النفس اللوامة بالدخول ؟ هنا تظهر فائدة التصوف ، والجلوس إلى الغزالى فى إحدى حلقات «الاحياء».

سيأخذ حجة الاسلام بيده إن كانت تنوء تحت ثقل المعصية ، ولاتستطيع أن ترتفع إلى أعلى ، لتدق باب النفس اللوامة ، طالبة من الله الرحمة ، فيريه كيف يدخل على نفسه من باب الملامة. إن فى الاحياء والتعاليم الغزالية، ما يعرف الشباب طريق باب الملامة فى نفسه ؛ ذلك الباب الذى من دخله كان آمنا .

سيريه الغزالى كيف لايصده الشيطان عن ذلك الباب إذا أخذ يعظم له معصيته وأنه لاأمل لمثله فى رحمة الله ، حتى ينقلب على عقبيه «خسر الدنيا والآخرة» «ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً» . سيزيل الغزالى ما ران على قلبه ، ويجلوه بمرهم الملامة ، بالقدر

(١) « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » .

الذى يتفق وحالته . والإرشاد كالدواء إن زادت قطرة منه عن المقدر ، ربما كان فيها الهلاك . وقد تنبه الشيطان لهذا ؛ فتراه كثيراً ما يقصد من أراد التوبة، ويترصد له عند ذلك الباب، فيمد له فى شباك الملامة ، ويوسوس فى صدره ، معظما له إثمه ، حتى تضيق نفس التائب ويظن أن الله لايغفر له ، فينبرى له اللعين إذ ذاك ويزعم أنه له من الناصحين، ويقول له افعل ما شئت، وخذ حظك من الحياة . ماذا تنتظر ، ما دام المصير إلى سقر ... ؟ !

لكن الغزالى يقظ ، سينوره ويريه كيف من مأمنه يؤتى الحذر .ولايزال يحدثه حتى يجد صاحبنا فى نفسه ما وجده الشافعى فى نفسه، فإذا به يقول معه :

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى
جعلت رجائى نحو عفوك سلما

وهنا إذ يصل الغزالى بمريده إلى هذه الدرجة ، فقد أمن عليه ، فيدعه بعدها لرحمة الله ، وهى قريبة من المحسنين .

إن مفتاح باب النفس اللوامة هو ماذكره الصوفية فى تعاليمهم وكتبهم . ومن قضى عمره لايدق ذلك

الباب فى نفسه هلك . ومن ظن أنه يفتح ذلك الباب بغير «مفتاحه» الأصلى، وحسبه قراءة فى علم النفس والفلسفة وما إلى ذلك، ضل وكان من أولئك «الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» . ربما حسب أنه قد وصل إلى نفسه اللوامة ، ولكن سيكون ذلك تلبيساً وخداعاً من الشيطان ، وإملاء له فى الغى ليزداد إثما . فإن النفس اللوامة هى التى إن فعلت معصية لاتعود اليها ، فإن فعلت معصية من نوع آخر ، ثابت ولم تعد ، وهكذا حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، ويتوب الله على صاحبها تماماً. أما أن يأثم الإنسان صباحاً ، ثم يتوب مساء ، ليعود لنفس المعصية فى اليوم التالى ونفس التوبة ، وهكذا دواليك ، فتلك هى التوبة التى تكون شراً من الإثم نفسه ، واللوم الذى يزخرفه الشيطان لمن حرم نعمة الله ورحمته .

فليقبل الشباب على باب نفسه اللوامة ، وليأخذ المفتاح من التصوف ، وليعرف مكانه – حتى لايتعبه التحرى والتنقيب فى عالم التصوف – فى درج الغزالى ، من خزانة إحيائه .

أما عن الباب الثالث والأخير فى مداخل النفس الثلاث ، فهو باب الوسوسة والسوء ، وهو باب الشيطان حيث اتخذ فى النفس مسكنه «يوسوس فى صدور الناس» وذاك الباب مفتاحه بيد الشيطان ، وحف ذاك الباب بالشهوات. والإنسان ليس فى حاجة إلى أن يطلب مفتاح ذلك الباب ، شأنه مع البابين السابقين، بل الشيطان فى خدمته دائماً، لا يغفل طرفة عين عن تقديمه له ، ليل نهار .

وهذا الباب فى مدخل النفس ، عكس البابين السابقين . فالأولان فى حاجة إلى من يفتحهما ، أما هذا الباب ، فمفتوح دائماً ، وهو فى حاجة إلى من يغلقه ، فمنه تهب لفحات جهنم ، وفى القلب لمتان ، كما يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام : لمة من الملك ، ولمة من الشيطان .

وإن أكثر ما يقرؤه المرء فى الفلسفة وما إليها ، هو مفتاح لذلك الباب. فكلما أغلقته نفحة من الله ، إذا بقراءة شىء من هذا القبيل، تكون المفتاح الذى سرعان ما يديره الشيطان فى قفله ، فإذا بلفحات الزيغ والضلال قد أخذت تهب على الضحية من حيث

لايدرى ، وهو يظن بنفسه العلم . ومن هنا كانت قراءة الفلسفة لا تسمن ولا تغنى من جوع بالنسبة لبعض الناس ، وإن أتعبت العقل ، وظن أصحابها بأنفسهم علما. وهم علماء حقاً ؛ ولكن أتدرى مبلغهم من العلم؟ إن كنت لاتدرى فاسأل أهل الذكر إن كنت لا تعلم .

ولقد تولى الإمام الغزالى بيان ماغمض عليك ،فى فى إحيائه «كل ما عرفنا نزر حقير بالإضافة إلى ماعرفه جملة العلماء ، والأولياء ؛ وما عرفوه تزر حقير بالإضافة إلى ماعرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وجملة ماعرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وماعرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفه الملائكة المقربون كاسرافيل وجبريل وغيرهما ؛ ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما ، بل هو إلى أن يسمى دهشاً وحيرة ، وقصوراً وعجزا ، أقرب . فسبحان من عرف عباده ماعرف ثم خاطب جميعهم وقال : وما اوتيتم من العلم إلا قليلا » .

صدّق ما قاله الغزالى أولا تصدّقه « فإن حاجوك

فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » .

أنا أدعو إلى الله على بصيرة ، وأقول إن سبيل المعرفة الحقيقى ، إنما تجده عند الصوفية ، أهل البصائر والقلوب ، أولئك الذين أخذوا العلم عن الله كشفاً ، فعلمهم الله من لدنه علما . إنهم أولئك الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك . إن المعرفة الحقة عند أولئك الذين جعلوا شعارهم ما قاله أحد أئمتهم الأعلام ، الغزالى: « أجلْ أيها العاقل فكرك فى الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء ، فتجول بقلبك فى أقطارها ، إلى أن يقوم قلبك بين يدى عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال : « رأى قلبى ربى » .

وليس يعنينا الآن أن نسترسل فى الكلام بصدد باب الوسوسة ، من حيث اتباع الشهوات وما إلى ذلك ، ففيما ذكره الغزالى فى إحيائه كفاية لمن أراد ؛ وحسبنا الإشارة. ولكن يعنينا الكلام فى هذا الباب ، من حيث أحد مفاتحه ، مفتاح الاطلاع ، وبيان

طريقة الشيطان فى استعمال ذلك المفتاح ، وعلاج ذلك عند المتصوفة ، ممثلين فى الغزالى . وهنا يلزم التعريف بأن باب الوسوسة هذا ، له مفاتيح لاحصرلها ، أعدها الشيطان بكيده . فمفتاح مصنوع من العلم – العلم الذى لاينفع صاحبه – ومفتاح مصنوع من الشهوة ، ومفتاح مصنوع من الفن ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه ولايدخل تحت حصر. وهذا بعكس البابين الأولين ، فليس لهما إلا مفتاح واحد ، إما استعملناه فانفتح الباب بمشيئة الله ، أو استعملنا غيره ، فضربنا فى حديد بارد. فان وجه ربك لواحد ، وللشيطان عدو الخلق وجوه .

يخطىء المرء حقيقة نفسه ، كما يخطىء المرء الطريق. وقد ينتبه من ضل الطريق فى الوقت الملائم، فيعود أدراجه من حيث أتى ، وقد لا ينتبه إلى خطئه إلا بعد أن يسبق السيف العذل ، فإذا بزاده قد فرغ ، فيهلك قبل أن يستطيع الرجوع . ومثل ذلك من يخطىء فيلج باب النفس الوسواسة الأمارة بالسوء ، مستعملا مفاتحه، وهو يظن أنه بسبيل النفس المطمئنة، أو النفس اللوامة التى تعده نحو الكمال . وقد ينتبه

لخطئه هذا قبل نفاد زاده من عمره، فيعود من حيث أتى ، وفى ذلك يقول الحديث الشريف – فى أحد شقيه – إن المرء ليعمل بعمل أهل النار حتى إذا لم يبق بينه وبينها غير شبر واحد ، فإذا به يعمل عمل أهل الجنة ، فيكون من أهلها . ومن زحزح عن النار فقد فاز . وقد لاينتبه المرء أبدا لخطئة هذا ، فيضل سعيه فى الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعاً ، وما يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فيكون من الأخسرين أعمالا. وقد ينتبه لخطئه هذا ، ولكن بعد فوات الأوان ، إذ يكون زاده من عمره قد فرغ فيقع فى الطريق وهو لايرد للحياة ليعمل غيرماكان يعمل . إن يقظته للحقيقة كيقظة فرعون حين أشرف على الغرق . وقد تنبه الإمام الغزالى لهذا ، فتدارك من أمره ما فات ، إذ كان يطلب فى بدء حياته العلم الذى ينال به الصيت والجاه ، فأفاق قبل فوات الأوان ، وأصبح يطلب العلم الذى يعرف به سقوط رتبة الجاه ، كما سيرى القراء فى فصول الكتاب . وفى ذلك يقول ما نصه : «كنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه وأدعو إليه بقولى وعملى ،

وكان ذلك قصدى ونيتى». ولكنه أفاق «أما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه».

فعلى المرء أن ينظر جيداً ، أى زاد من العلم أخذ ، أينفعه ذلك العلم فى الآخرة، أم سيكون عليه حسرات ؟

وليجعل أسوته فى ذلك الغزالى حين انتبه فإذا هو «مقبل على علوم غير مهمة ولانافعة فى طريق الآخرة» كما سترى فى اعترافاته فى المنقذ وفى ذلك يقول فى عبارته الخالدة : «أردنا أن نطلب العلم لغير الله ، فأبى العلم إلا أن يكون لله».

إنك لتجد الشباب يقبل نهماً على قراءة الفسلفة، وماكتبه الفلاسفة القدماء والمحدثون ، وهو يبغى من وراء ذلك تثقيف نفسه . ولكن أى تثقيف هذا ؟ إنه يفتح باب الوسوسة فى نفسه ، وسترقص كثير من علامات الاستفهام أمام عينيه حيرى ، قبل أن يستطيع إيجاد جواب لها تطمئن إليه نفسه ، ويرتاح له عقله . وسأضرب لذلك مثلا واقعياً ، فقدروت

الجرائد خبر ذلك الشاب الذى كان يدرس الفلسفة فى الجامعة ، ثم انتحر بأن ألقى نفسه فى النهر ، بعد أن خلف وراءه خطابا ، إذا عرفت مضمونه عرفت قيمة ما ذكره الغزالى فى الفلسفة حين دعا إلى الزجر عن قراءتها فى «منقذه» لذلك الصنف من الناس، وكما ستراه موضحاً فى كتابنا بإذن الله .

كتب ذلك الشاب البائس، أن الفلسفة قد أتعبت عقله، وأن روحه أصبحت حائرة، تطلب البراهين فيعوزها التحقيق ، حتى أصبح وقد سئم الحياة التى لا معنى ولا قيمة لها ، فهو يريد الخلاص بنفسه !

أرأيت كيف فتح هذا الشاب المسكين باب النفس الوسواسة بمفتاح الفلسفة ، فضل وأصبح أمره فرطاً ؟ ! لقد كان يبغى تثقيف نفسه ، فأدى به الأمر حين أخطأ الباب فى نفسه - على ما سبق أن بيناه - إلى أن يتلف نفسه، وما كان ذلك قصده. وقد يعترض أحد بأن هذه حالة فردية جاءت على خلاف الأصل، والشاذ لايقاس عليه . ولكن الواقع أن هذه الحالة صورة من حالات أخرى لاحصر لها ، نعلم ببعضها ، ويكتم البعض صدورهم عليها فلا نعلم بها .

ولو شئنا أن نسوق الأمثلة لما يشبه هذه الحالة من
التى يعلمها كثير من الناس لضاق بنا المجال. وما لنا
نذهب بعيداً ؟ دونك أئمة الفلسفة أنفسهم ، وانظر
ماذا فعل الكثير منهم بأنفسهم ؟ هل أتاك حديث
جيته ، شاعر الألمان وفيلسوفهم العظيم ؟ لقد جعل
الانتحار « مودة » بين الشباب الألمانى ، ولكم تشبّه
شاب منهم ببطل آلام فرتر !

إن أكثر الفلاسفة ، جاحدون أو شاكون ؛ ومن
سار فى طريقهم فسيصل إلى ما وصلوا إليه ، إلا من
رحم ربى ، وقليل ماهم . إن الفلسفة لها أهل ،
وهى للخاصة فحسب كما سترى . فانتظر قليلا فلدينا
لذلك حديث .

لا يُفهم من حملنا على الفلسفة هذه الحملة ، أننا
ندعو إلى الجهل كما يفعل الرجعيون ، بل « ما ننسخ من
آية أو ننسها نأت بخير منها » فنحن لم نهدم شيئاً
ونكتف ، بل على أنقاضه أردنا أن نشيد ماهو
خير منه ، فرحنا ندعو إلى قراءة التصوف ؛ ففيه غذاء
لعقل ، وشفاء لقلب ، ورياضة لروح ، وسعادة
لنفس . وفى التصوف فلسفة ولكن من نوع آخر

يفسره قول الغزالى فى إحيائه « وما من ذرة فى السماء
والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من
يشاء ، ويهدى بها من يشاء . فمن نظر فى هذه الأمور
من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه ، استفاد منه المعرفة
بجلال الله تعالى وعظمته ، واهتدى به . ومن نظر
فيها قاصراً للنظر عليها من حيث تأثير بعضها فى بعض ،
لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب ، فقد شقى
وارتد ؛ فنعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن يجنبنا
مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وجوده ورحمته » .
أرأيت إذاً كيف يعالج الصوفى الفلسفة ؟ . وفى
التصوف علم نفس كذلك. يقول الإمام السهروردى
فى كتابه عوارف المعارف « وعلم النفس ومعرفتها من
أعز علوم القوم — يعنى الصوفية — وأقوم الناس
بطريق المقربين والصوفية أقومهم بمعرفة النفس » .
وبالأحرى ففى التصوف كل ما يبغيه طلاب العلم
الطامحون . ولكن يصرفهم عنه جهل به ، أو تناس
لقدره ، وعدم معرفة ماله من فضل . وإن فى دراسة
أئمة الصوفية الأعلام ، كالغزالى وأضرابه ، لما ينفع
آلاف المرات أكثر من دراسة الفلاسفة الآخرين

«وإن كنا عن دراسهم لغافلين» فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

نعم! أفهم أن نقرأ للفلاسفة، لا لنسلّم بكل ما يقولونه، ولا لنرفض كل ما يبدونه؛ بل على تلك الطريقة التى بينها الغزالى، والتى سترونها فى فصل الغزالى والفلسفة. فمن استطاع أن يدرس الفلسفة على تلك الطريقة التى بيّنها الإمام، فليقبل أوفليدع إن شاء لنفسه السلامة. فأنا لا أدعو إلى هجر الفلسفة فى ذاتها – لا الفلسفة بمعناها القديم ولا بمعناها الحديث – بل أزجر عنها صنفاً معينا من الناس. أما أولئك الذين يقرءون الفلسفة كما قرأها الغزالى – على ما ستراه فى منقذه – وكما كان يقرؤها السيد جمال الدين الأفغانى، فيلسوف الشرق وحكيم الإسلام، منذ زمن ليس ليس ببعيد، إذ كان بها من المولعين؛ فقراءة الفلسفة لا تخلو فى هذه الحال من فائدة لدى أمثال هؤلاء الأعلام. فإنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه؛ إذ فى الفلسفة الغث والسمين. فمن قدر على التفرقة بينهما استفاد، ومن خلط بينهما هلك. وقليل أولئك الذين يستطيعون هذه التفرقة؛ فان أكثر الخلق،

كما يقول الغزالى. لا يعرفون قدر أنفسهم، ويحسنون الظن بها، فتراهم يدعون «الحذاقة والبراعة وكمال العقل فى تمييز الحق عن الباطل والهدى عن الضلال». لذلك وسدًّا لباب الذريعة كما يقول الأصوليون، أحسن الغزالى صنعا حين صاح صيحته التى تهدى للتى هى أقوم «يجب حسم الخلاف فى زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال ما أمكن». والخطاب غير موجه هنا للأفغانى وأمثاله طبعا، بل لأمثال هذا الطالب المسكين الذى عرفت حديثه!

فلينظر كل فى نفسه بعين بصيرته، ويرى أى باب من أبواب النفس فتح؛ أهو باب النفس المطمئنة أم هو باب النفس اللوامة، أم هو باب النفس الأمارة بالسوء؟

وقد بينا مفاتح هذه الأبواب المختلفة «فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا».

تبقى بعد ذلك كلمة أخيرة وجيزة، عن كتاب الغزالى الخالدة «المنقذ من الضلال» وهو موضوع كتابنا:

ألف الغزالى « منقذه » وقد أربت سنّه على الخمسين ، وقبل انطفاء نور حياته بقليل . وفى ذلك الكتاب سجل الغزالى اعترافاته التحليلية وروى قصة حياته الفكرية والروحية. وسترى الظروف التى دفعته إلى ذلك كما رواها بنفسه .

سيروى لنا الإمام قصة شائقة ، ترى فيها ذلك الإمام الجليل ، قد أتى عليه حين من الدهر وقف فيه بين عاملين يتجاذبانه: شك ، ورجاء . إنها فترة الحيرة فى حياة ذلك القطب الجليل . وسترى كيف أخذ الله بيده منها . لقد وجده ضالا فهدى ، فإذا به قد خرج من الظلمات إلى النور ، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . وسيكون ذلك درساً ، أبلغ به من درس !

وسترى كيف عشق الغزالى الحقيقة .وكيف طلبها ؟

وسترى ما كوّنه الغزالى لنفسه من نظرية فى المعرفة

وسترى كيف رفض الغزالى ابتداء جميع أصناف العلوم . لقد كان مراده العلم اليقينى ، فراح يبحث عنه أين ؟

لدى علماء الكلام ، ولدى الفلاسفة ، ولدى التعليمية . وأخيراً لدى أهل التصوف .

وسترى كيف درس الغزالى هذه الفرق ،وكيف نقدها، وأخيراً وصل إلى ما كان ينشده. لدى من؟

– عند أهل التصوف . ولذاك حديث ممتع . ليت عشاق الحقيقة الخالدة وطلاب العلم ، يستمعونه . فيتبعوا أحسنه . فما كان حديثا يفترى ، بل صدى لما ردده قلب فى الله، رأى فحدث بآيات ربه الكبرى وماكذب الفؤاد ما رأى .

إنها قصة نفس عظيمة ، صاحبها حجة من حجج الإسلام البالغة ، وقد خطها قلم صاحبها نفسه، بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من علوو تعمق، وانتشار صيت وجاه ، ودرجة فى الدين والعلم عظيمة وما كمثل الرجل ذى الشأن ، إن كتب تاريخه بيده ؛ وصدق فيما يحدث به . إنه لآخذ ولاشك بمجامع القلوب ، وكل واجد فيما يقوله درساً . فما بالك إذا كان القاص هنا ، هو حجة الإسلام الغزالى ؟ إن قلمه هنا فيما كتب ، لهو القلم الذى يحل به القسم ، وهو الذى عناه المولى سبحانه إذ يقول « ن . والقلم

وما يسطرون » . إنه القسم بالقلم الصادق الذى « يهدى للتى هى أقوم » .

ولهذا الكتاب الجليل ، أهمية عظمى لدى المستشرقين الذين يهتمون بالغزالى ويعنون بدراسة التصوف ، فقد أولاه أكثرهم عناية خاصة به . نذكر منهم :

كاراديفو ، نيكلسون ، جولد تسيهر ، براون ، شمولدز ، ماسينيون ، دى مينار ، مكدونالد ، بروكلمان ، آسين بلاسيوس ، برانتل ، دى بور ، ماكس هورتن ، أوبرمان ، وناللينو ، وفنسنك الخ.

ويأخذنا عند ذلك الأسف ، إذ نرى كيف يهتم المستشرقون بذاك السفر القيم ، ولانوليه نحن من اهتمامنا ، ما كان حريا بنا أن نوليه إياه ، لولا غفلة عن أقدار الرجال ، منى بها الشرق ، منذ أمد بعيد .

ولو كان الأمر بيدى ، لأنشأت كرسيا فى الجامعة خاصاً بالإمام الغزالى ، وهذا أقل ما كان يجب فعله ، لو عرفنا للإنصاف معنى ، نحو هذا الإمام الجليل ؛ ذلك الذى تقرن اسمه كلما ذكرناه . بحجة الإسلام ، ولا يكون لحجة الإسلام فى نظرنا من قيمة ، ما يجعلنا

ننشىء له كرسيا واحداً فى الجامعة مقصوراً عليه من بين كراسى عدة لمن هم أقل منه شأنا . إن الدين عند الله الإسلام ، وهو فى الدستور المصرى دين الدولة الرسمى ، ولكن « حجته » أوهى شأنا لدى الجامعة من أن ينشأ لصاحبها كرسى ، يسع علم صاحبه لو جلس عليه ، علم الجامعة ومن فيها . وليس هذا تهوينا لشأن الجامعة وأساتذة فيها أجلاء ؛ بل تعظيم لشأن الغزالى ، بما هو له أهل ، وما هو فيه حق ، وليته يطاع لقصير أمر !

وللغزالى حوالى خمسة وثلاثين ومائة مؤلف ، طبع بعضها والبعض الآخر لم يطبع بعد . فمتى يجىء ذلك اليوم الذى نرى فيه هذه الأسفار الجليلة قد تم طبعها وأصبحت متداولة بين الناس ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون ؟ فإذا عرفنا عدد مؤلفات الغزالى من حيث الكمية ، وقيمتها من حيث الكيف ، لم يستغرب قولى حين دعوت إلى إنشاء كرسى خاص به فى الجامعة . وسيكون الذين يلجون هذا القسم ، هم تلاميذ الغزالى ، الذين يكرسون حياتهم لإحياء عهده وسيصبحون هم نبراس الهدى ، وسينشرون الرسالة

الروحية فى القرن العشرين – إن تم هذا فى ذلك القرن–
وسيستجيب العالم لندائهم بعد ما ظلم نفسه حين أحيا
رسالة المادة ، ونسى رسالة الروح !

وآنئذ تخرج رسالة الهدى من الشرق ، كما
كما خرجت من قديم ، مؤذنة ببزوغ فجر عهد جديد ،
يعم فيه التآخى والسلام . إنه ذلك الحلم الذى طالما
نشده المصلحون !

والعالم لن يسعد يوما برسالة المادة ، فتلك إن
سارت به خطوة إلى الأمام، فكى ترجع به إلى الوراء
خطوات . فالمدنية كما يفهمها الآن قوم ، هى تعمير ،
فاختراع ، فتدمير . أما رسالة الروح ، فبشرى للعالم
إن هى سادت . ورسالة الروح إنما توجد فى جسم
الإسلام ، ومكانها قلبه ، وشغاف ذلك القلب هو
التصوف . فمنه ننشده للروح الحياة ، لدى أولئك
السابقين الأولين : الغزالى .... وأضرابه . فلواستطعنا
أن نجعل الجامعة تخرج جيلا من تلاميذ الغزالى
الروحانيين ومريديه المخلصين ، ثم انتشر هؤلاء
مبشرين ومنذرين ، وداعين إلى الله والإسلام
بحكمة، إذاً لاشتعلت روح الإسلام العالية فى الشرق

من جديد ، وسرى ضوءها منه إلى الغرب ، فتم
نور الله ، وصارت الزيتونة لا شرقية ولا غربية ،
وتناسى البشر ما يسمونه «الجنسية» ، وأصبح لا جنسية
لإنسان إلا فى دينه ، وهو عند الله الإسلام . والله
الذى جاء بدين الحق ليظهره على الدين كله، سينصره
كما وعده ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، أو
سخر المنكرون .

سيقرأ هذا قوم ويتساءلون : أشاعر هذا يهيم
بكل واد ؟ أم خيال التصوف هذا ؟

– بل إيمان بالله ورسالة ذلك الدين القيم ،
وتصديق لنبيه ومبلغ رسالته ، القائل : سيصلح حال
آخر هذه الأمة ، بما صلح به أولها . وهل غير رسالة
الروح حين « نزل به الروح الأمين . على قلبك
لتكون من المنذرين» . أصلح حال أول هذه الأمة
يا نبى الله ؟ لقد أيقظت أرواح العرب فاستجابت
لك ، وفعلت – كما روى لنا التاريخ – عجباً ... !
إن الفتوحات الإسلامية الرائعة ، حين كانت تنتصر
القلة الصابرة ، على الكثرة الشجاعة . لتهيب بنا
صائحة بمنطق الأرواح: لقد كان ذلك فعلى إذ اشترانى

الله من أصحابى بأن لهم الجنة !

ولكن متى هذا اليوم الذى تستيقظ فيه الأرواح من سباتها وتفيق من غفلتها ؟

إنه اليوم الذى يعرف فيه المسلمون كيف يعظمون شأن التصوف وما فيه من معنى يدركون . وهو اليوم الذى يجلسون فيه للغزالى خشعاً ينصتون « اعلموا » (١) أحسن الله تعالى إرشادكم ، وألان للحق قيادكم ...الخ» إلى آخر ما يعطيه الإمام من دروس بينات. ستنتعش الروح الإسلامية يوما ، يرونه بعيداً ، ونراه قريبا ، بل سيسخر قوم من قولى هذا ، ويظنون بى الظنون. فأنت إن حدثت اليوم بلغة من يؤمن برسالة الروح ونهضتها ، وأن للروح يوماً آتياً لاريب فيه ، تسود فيه على المادة « فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريباً » .

إن الحديث ذو شجون ، وإن المعانى كالماء إن سال لا يقف ، فحسبى هذا فقد دفعنى سياق الحديث من موضوع لآخر ، ولأقل ما قاله الغزالى فى حالة

(١) منقذ

تماثل حالتى «(١) ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده ، فقد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده» .

عسى أن يكون الله قد وفقنى ، لأن أعرض منقذ أستاذى الغزالى ذلك العرض الذى ستجده إن شاءالله ـ وقد استوفيت المنقذ كله فى كتابى ـ وأن أعلق عليه وأشرحه ، بالقدر الذى استطعت أن أخرج به من دراستى للإمام الغزالى ، من كتبه القيمة ، وماذقت فى صحبته الروحية، حتى ترانى قد جعلت الفصول الثلاثة الأخيرة من الكتاب على هيئة حوار بينى ، وبين أستاذى الغزالى ، أنا أسأله وهو يجيب . ولو كان الغزالى حياً بجسمه ، كما هو حى بروحه ، لما أجابنى بأكثر من هذا؛ إذ كنت آخذ أجوبته من نفس كلامه فى المنقذ فجاءت أسئلتى كشرح وتركيز لما أحب توجيه النظر إليه ، فى جواب الغزالى عن سؤالى .

لقد أقدمت على ذلك، وأنا أكتب على استحياء . فمثلى حين يلقى بضوء من شرحه على آيات الغزالى البينات ، مثله كمن يتقدم بنور الشمعة فى وضح

(١) احياء علوم الدين

النهار ؛ أو كمثل القطرة حين تنزل البحر ، فيأخذها هو ولا تأخذ منه هى. حسى ذلك، أن أوقد شمعتى من نور الغزالى ، وأن تكون قطرتى فى بحره ، منه وإليه

سلام على الغزالى فى الدعاة الخالدين حيا وميتا . والحمد لله رب العالمين .

أبو بكر أبو بكر عبد الرازق

٩ أبريل سنة ١٩٤٧

الفصل الأول

لماذا ألف الغزالى منقذه ؟

« أما بعد ، فقد سألتنى أيها الأخ فى الدين ...»

تلك هى العبارة التى ابتدأ بها الغزالى – برحمه الله – اعترافاته فى كتابه الخالد « المنقذ من الضلال » . فماذا سأله أخوه فى الدين ؟

« أن يبث إليه غاية العلوم وأسرارها » .

« وغائلة المذاهب وأغوارها » .

« وأحكى لك ما قاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق » .

« وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار » .

« وما استفدته أولا من علم الكلام » ...

« وما احتويته ثانيا من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام » .

« وما ازدريته ثالثا من طرق التفلسف » .
« وما ارتضيته أخيراً من طرق التصوف » .
« وما انحل لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق من لباب الحق » .
« وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطالبة » .
« وما دعانى إلى معاودتى بنيسابور بعد طول هذه المدة » .

بذلك يتضح لنا لماذا ألف الغزالى كتابه « المنقذ » رداً على ما سأله إياه أخوه فى الدين ، فجاء المنقذ تبيانا وتفصيلا لكل ما أوردناه بنصه .
فالغزالى يحدثنا بأن أخاه فى الدين يسأله عن أشياء ، فيبتدر لاجابته، لأنه عرف فيه صدق الرغبة « فابتدرت لإجابتك إلى مطالبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك » .

ولكن ثم من يشك فى ذلك السبب الذى أبداه الغزالى . فالدكتور عبد الدايم أبوالعطا البقرى يقف هنا وقفة المتشكك، ولا يطمئن لما قاله حجة الإسلام عن نفسه ! فيقول فى كتابه « اعترافات الغزالى » مانصه :

« وسواء (١) أسأله حقيقة أخ اه فى الدين حكاية ما قاساه فى استخلاص الحق ... أم افترض هو أن هناك سائلا قد سأل هذا السؤال ، فهذا فضلا عن أنه عرض للفكر التى يحتويها الكتاب مرتبة كترتيب الكتاب نفسه، فهو على كل حال يدل على أن تطوره الفكرى وسيره العلمى ، فيه بعض الغموض الذى يحتاج إلى شىء من التصويب والإيضاح ... والواقع أن هذه الحادثة، حادثة رجوعه إلى التدريس بنيسابور – وهى آخر الحوادث التى سجلها فى المنقذ – كانت هى السبب المباشر لكتابة المنقذ من الضلال، والموصل إلى ذى العزة والجلال » .

لست أدرى كيف جعل الأستاذ البقرى حادثة رجوع الغزالى للتدريس بنيسابور هى علة تأليف المنقذ؟ ! فهو لم يكتف بأن يجعل ذلك الأخ فى الدين محض افتراض أتى به الغزالى ، بل أبى إلا أن يجعل الغزالى مغرضاً فى تأريخ نفسه – أى غير مخلص – ! وهذا شطط كبير وتجنّ على ذلك العالم الفذ ، حجة

(١) ص ٩

الإسلام . فهو ليس فى حاجة إلى ذلك الافتراض ليؤرخ نفسه ، فتراه يقول : « بعد الوقوف على صدق رغبتك » ولايكون هو صادقا مع نفسه فيما يحدث به ، وكان مستطيعا الوصول إلى غرضه دون ذلك الافتراض الوهمى الذى لايكسبه شيئاً ، بل يجعله غير صادق مع نفسه فى استهلال اعترافاته !

أما عن قول الدكتور البقرى بأن السؤال الذى يجيب عنه الغزالى عبارة عن «عرض للفكر التى يحتويها الكتاب مرتبة كترتيب الكتاب نفسه» أى أن ذلك مما يقوى الظن بأن هذا السائل وهمى ، فالعكس هو الصحيح ؛ إذ الغزالى لم يؤلف كتابه ، ثم جعل هذا السؤال الوهمى تبويبا وعرضا لفكر الكتاب — وماكان أغناه عن ذلك التحايل بأن يلجأ إلى الفهرست لو أراد — ! بل رتب كتابه وقسمه هذا التقسيم وفقاً للسؤال الذى سأله إياه أخوه فى الدين . فالكتاب إنما سار على نقط السؤال حتى استوفاها ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وليس السؤال هو الذى أحصى ما فى الكتاب وجاء كما يقول الأستاذ، عرضاً للفكر التى يحتويها الكتاب مرتبة كترتيب الكتاب نفسه !

أما عن جعل رجوع الغزالى للتدريس بنيسابور ، هو وحده السبب الرئيسى لتأليف المنقذ ، فهو قول لا دليل عليه . تأبى هذا الرأى سيرة الإمام الفذ ، وتأباه أيضاً حوادث المنقذ ذاتها كما سيأتى .

وسنضرب صفحاً عن بقية الآراء البعيدة عن الواقع ، التى أدلى بها الأستاذ البقرى فى كتابه ، فهى لم تنل من الغزالى شيئاً .

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

نسكت عن الرد عنها — وماكان أيسره لوأردنا، فان كل من درس الغزالى وفهمه يعرف قيمة الآراء التى ذكرها الأستاذ البقرى فى الغزالى ومقدارصحتها إن قدر له الاطلاع على هاته الآراء — وذلك عملا بنصيحة أحمدبن حنبل فى البدعة. فقد أنكر ابن حنبل على الحارث المحاسبى تصنيفه فى الرد على المعتزلة ؛ فدافع الحارث عن رأيه ، بأن الرد على البدعة فرض . فأجابه أحمد : نعم ولكن حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها ، فكيف تأمن أن يطالع هذه الشبهة من تعلق بفهمه، ولا يلتفت إلى الجواب؛

أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ! ؟

وقدعلق الغزالى على هذه المناظرة فقال: إن ما ذكره أحمد حق، ولكن فى شبهة لم تنتشر ولم تشتهر ، أما إذا انتشرت فالجواب عنها واجب.

فنحن نعامل الدكتور البقرى ، إذ ندافع عن الغزالى، بما ذكره أحمد ، وبما قاله الغزالى فى تعليقه؛ إذ نعتبر أن بدعة الدكتور البقرى فى الغزالى لم تنتشر ولم تشتهر ! وما دعانا إلى الخروج عن القاعدة التى قررناها ، إذ رددنا عليه فى المسألة التى دفعنا فيها شبهة عدم الإخلاص عن الغزالى ، إلا أن هذه المسألة قد وردت فى استفتاح المنفذ، بصدد شبهة حسب صاحبها أنهقد نال بها المنقذ فى لبه، وقد رأيت وضعها الصحيح فيما بيناه لك .

إنا لنأسف تماما أن يكون مقدار فهم المتعلمين المثقفين للغزالى هو هذا ! .

وما دعانا إلى هذا الاستطراد، ولا أقول الدفاع ، فليس الغزالى فى حاجة إلى من يدافع عنه ، حسبه الله وكتبه تنطق بحقيقته ، إلا حرصنا على سيرة إمام عظيم كهذا ، أن تتناول بمثل هذا التجنى ، ولا دليل

لمن تجنى سوى رأيه ـ وقد عرفت مكانه من الصواب ـ وإن لم يؤيد هذا الرأى برهان ولا واقع !

يقول عبد الغافر بن اسماعيل الفارسى خطيب نيسابور محدثا عن الغزالى :

« وسلك طريق الزهد ، وترك الحشمة، وطرح ما نال من الدرجة ، وأخذ فى الاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، وقصد بيت الله الحرام ، ثم دخل الشام وأقام فى تلك البلاد قريباً من عشر سنين ، يطوف ويزور المشاهد ؛ وأخذ فى التصانيف المشهورة التى لم يسبق اليها ؛ مثل (إحياء علوم الدين) والكتب المختصرة منها ؛ مثل (الأربعين) وغيرها من الرسائل التى من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم . وأخذ فى مجاهدة النفس وتغيير الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، وتهذيب المعاش ، والتزيى بزى الصالحين ، وقصر الأمل ، ووقف الأوقات على هداية الخلق ، ودعائهم إلى ما يعنيهم من أمر الآخرة، وتبغيض الدنيا ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية ، والانقياد لكل من يتوسم فيه أو يشتم منه رائحة

المعرفة ، أو التيقظ بشيء من أنوار المشاهدة ، حتى مرن على ذلك ولان . ثم عاد إلى وطنه لازماً بيته مشتغلا بالتفكر ، ملازماً للوقت ، مقصوداً وذخراً لكل من يقصده ويدخل عليه ، إلى أن أتى على ذلك مدة ، وظهرت التصانيف وفشت الكتب ، ولم تبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ، ولا اعتراض على مآثره ، حتى انتهت نوبة الوزارة إلى فخر الملك جمال الشهداء تغمده الله برحمته ، وتزينت خراسان بحشمته ودولته ، وقد سمع وتحقق بمكان الغزالى ودرجته ، وكمال فضله وحالته ، وصفاء عقيدته ، ونقاء سريرته ، فتبرك به ، وحضره وسمع كلامه ، فاستدعى منه أن يلقى أنفاسه وفوائده عقيمة ، لا استفادة منها ، ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الإلحاح ، وتشدد فى الاقتراح ، إلى أن أجاب إلى الخروج ، وحمل إلى نيسابور ، وأشير عليه بالتدريس فى المدرسة الميمونة النظامية . فلم يجد بداً من الإذعان للولاة ، ونوى باظهار ما اشتغل به إفادة القاصدين دون الرجوع إلى ما انخلع عليه. وكم قرع عصاه بالخلاف والوقوع فيه ، والسعاية به ، والتشنيع عليه » . أقول

لعل الدكتور البقرى يحيي محاسن هؤلاء ! « فما تأثر ولا اشتغل بجواب الطاعنين . ولقد زرته مراراً... الخ » إلى أن يقول : « وكنت أظن أنه متلفع بجلباب التكاليف ، فتحققت بعد التنقير أن الأمر على خلاف المظنون. الخ» ثم يقول :

« وحكى لنا – أى الغزالى – عن كيفية أحواله ، من ابتداء ماظهر له من سلوك طريق التأله ، وغلبة الحال عليه بعد تبحره فى العلوم ، والاستعداد الذى خصه الله به فى تحصيل أنواع المعارف ، وتمكنه من البحث والنظر حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم الغريبة وتفكر فى العاقبة ، وما يجدى وينفع فى الآخرة ، فاقتدى بصحبة الفارمدى واستفتح منه الطريقة . وامتثل مما كان يشير به عليه . من القيام بوظائف العبادات ، والإمعان فى النوافل . واستدامة الأذكار والجد والاجتهاد ، إلى أن جاز تلك العقبة ، وتكلف تلك المشاق ، وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده .

« ثم حكى أنه راجع العلوم وخاض فى الفنون ،

وعاود الاجتهاد فى كتب العلوم الدقيقة ، حتى انفتحت له أبوابها ، وبقى مدة فى الوقائع وتكافؤ الأدلة وأطراف المسائل . ثم حكى أنه فتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شىء ، وحمله على الإعراض عما سواه ، حتى سهل ذلك . وهكذا وهكذا إلى أن ارتاض كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق وصار ماكنا نظن به ناموساً وتخلقاً ، طبعاً وتحققاً ، وأن ذلك أثر السعادة المقدرة له من الله تعالى .

« ثم سألناه عن كيفية رغبته فى الخروج من بيته ، والرجوع إلى مادعى اليه من أمر نيسابور ؟ فقال معتذراً عنه : ماكنت أجوز فى أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالإفادة ، وقد حق علىّ أن أبوح بالحق وأنطق به ، وأدعو اليه ، وكان صادقاً فى ذلك — أيسمع الدكتور البقرى ؛ فهذه شهادة من خطيب نيسابور؟ — ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته فاتخذ فى جواره مدرسة لطلبة العلم ، وخانقاه للصوفية .

« وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين ، من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ! والقعود

للتدريس ، بحيث لاتخلو لحظة من لحظات من معه عن فائدة » انتهى .

وقد آثرنا أن ننقل لك كلمة خطيب نيسابور هذه بجملتها ، لأن فيها إشارات كثيرة إلى حوادث ستراها فيما نقلناه لك عن المنقذ ، ولأن شهادة خطيب نسيابور ، وهى البلدة التى كان الغزالى ينشر فيها علمه على ما ستراه تفصيلا ، هى الشهادة التى يركن إليها ، عملا بقوله تعالى « وشهد شاهد من أهلها » . ولكن الدكتور البقرى ربما يرفض شهادة خطيب نيسابور أيضاً ! وإن كان « مكدونالد » فى كتابه عن الغزالى (تاريخ حياة الغزالى) تراه كثيراً ما يستشهد بأقوال عبد الغافر ابن اسماعيل الفارسى ، خطيب نيسابور ، لأنه يعرف — كما نعرف جميعا — قيمة ما يذكره رجل كهذا ، عاصر الغزالى ، واختلف اليه كثيراً ، ولم يعرف عن خطيب نيسابور ، شهادة الزور !

لذلك ولما كان لنيسابور فى حياة الغزالى من حديث ، نقلنا لك كلمة خطيبها فى الغزالى . دع عنك ماذكره فيه أمثال الذهبى ، وابن السبكى ،

وقطب الدين محمد بن الأردبيلى ، والأستاذ عبد الوهاب الشعرانى ، وابن الجوزى ، وإمام الحرمين أبى المعالى عبد الملك الجوينى النيسابورى ، والزبيدى ، وغير هؤلاء كثيرون ، يعرفهم الذين يعنون بأمر الغزالى .

فلعل إذاً، أن يكون فى نقلنا هذه الكلمة الصادقة من شاهد عيان كما يقولون ، ما يقنع الدكتور البقرى ، ومن أراد أن ينهج نهجه ، ببعد الشقة بينه وبين الإمام الغزالى ، وأن ليس الغزالى هو الذى يقال فيه ، ما قاله فى كتابه السابق الذكر :

« أما قوله – أى الإمام الغزالى – : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله » فلا ندرى أكان قوله حقاً وصدقاً ؟ أوالحق والصدق أنه طلب العلم لغير الله ، وظل ينشره ويطلبه لغير الله كما بدأه ؟ ؟ » انتهى .

فالذى يعرف الغزالى من كتبه ، إن لم يعرفه من أقوال معاصريه وغير معاصريه أيضاً ، ويعرف كيف تنازل عن الجاه والسلطان والمال فراراً بدينه ، ورغبة فى سلامة أخراه ، لا يبقى متردداً فى الحكم على

الغزالى – كما فعل الدكتور البقرى – أكان يطلب العلم لله أم لغير الله ! !

ولا يتردد كذلك فى تصديق الغزالى ، فيما ذكره عن نفسه ، فى سبب تأليفه « المنقذ من الضلال » ، ولايذهب مع الأستاذ البقرى فى فروض لها مايدحضها من الواقع . فما كان الغزالى يتاجر بعلمه ودينه حين الف منقذه ، بل حسبه ماذكره بنفسه « إنى وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ؛ فإن الرجوع عود إلى ماكان . وكنت فى ذلك الزمان ، أنشر العلم الذى به يكسب الجاه ، وأدعو اليه بقولى وعملى ، وكان ذلك قصدى ونيتى .

« وأما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه . هذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى ، يعلم الله ذلك منى ، وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى ؛ ولست أدرى ، أأصل إلى مرادى أم أخترم دون غرضى ؟ ولكنى أومن إيمان يقين ومشاهدة أن « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » وأنى لم أتحرك ، لكنه حركنى ، وأنى لم أعمل لكنه استعملنى . فأسأله أن يصلحنى

أولا ، ثم يصلح بى ويهدينى ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقاً ، ويرزقنى اتباعه ، ويرينى الباطل باطلا ، ويرزقنى اجتنابه » .

إذاً كان الغزالى « مخلصاً » حين ألف منقذه ، و « صادقاً » حين حدثنا بالسبب.

وعلى هذا الأساس فى فهمنا للغزالى ، نتمشى معه فى بقية اعترافاته ؛ « ذكرى وماكنا ظالمين » .

الفصل الثانى

الغزالى يطلب العلم اليقينى

« وقلت مستعينا بالله ومتوكلا عليه ، ومستوفقاً منه وملتجئاً اليه ... » .

بذلك الاستفتاح القوى الصادق ، يبدأ الغزالى درسه « ... اعلموا أحسن الله تعالى إرشادكم ، وألان للحق قيادكم ... الخ » .

هنا يلقى الغزالى نظرته الفاحصة على هذا الكون العجيب الحافل ، ويرى الناس مختلفين أديانا ومللا ، حتى الأمة الواحدة ، ذهبت فيها الفرق مذاهب .

تباينت الطرق ، والبحر عميق « غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون » وقد زعم كل فريق أنه على شىء و « كل حزب بما لديهم فرحون » .

لقد تنبأ سيد المرسلين لأمته بهذا الاختلاف يوماً. « ستفترق أمتى ثلاثاً وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة »

عرف الغزالى هذا وسلم بأنه قد «كان ما وعد أن يكون». فهل يرضى لنفسه إحدى الفرق الثلاث والسبعين، علها تكون الناجية وما يدريه إن اختار؟ هو لم يتخذ عند الله عهداً، وهو لا يقول على الله ما لا يعلم.

إنه منذ عنفوان شبابه، منذ راهق البلوغ، ولما تبلغ العشرين سنُّه حتى أصبح وقد أوفى على الخمسين – وهى سنه إذ كتب منقذه تقريباً – يتلمس الحقيقة، آنسا فى نفسه رشداً، فهو يقتحم «لجة هذا البحر العميق» ويخوض «غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور» ولكن الطريق غير معبّد، فيه ظلام، وفيه مشكلات. ولكن من راض نفسه على طلب الحقيقة، فليس له إلى النكوص من سبيل. فهو يتوغل فى كل مظلمة، ويقتحم كل ورطة، غير هياب ولا وجل. أمامه الفرق كثرت عدداً، ولكنه لا ينطوى تحت لواء إحداها، بل شعاره أن «أتفحص عن عقدة كل فرقة، وأكتشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع» فهو لا يغادر باطنيا إلا أحب الاطلاع على بطانته، ولا ظاهريا إلا أراد العلم بحاصل ظهارته، ولا فلسفياً إلا قصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلا اطلع على غاية كلامه وجادله بالتى هى أحسن، ولا صوفيا إلا وهو فى الحصول على سر صفوته من الراغبين، ولا متعبداً إلا ترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ولا زنديقاً معـــاطلا إلا تجسس وراءه ليعرف سبب جرأته وزندقته. وهكذا يكشف لنا الغزالى عن صورة نفسه المتعطشة لدرك الحقائق «وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى».

أرأيت هذه النفس العظيمة؟!

أكان ذلك التعطش لدرك الحقائق غريزة وفطرة فى نفسه العظيمة القوية، أم تعودا واكتسابا راض النفس عليهما؟

بل «غريزة وفطرة من الله وضعا فى جبلتى، لاباختيارى وحيلتى».

فهو ما رمى إذ رمى، ولكن الله رمى حتى انحلت عنه رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد

الموروثة، وهو ما زال بعد صبياً ، والله يؤتى حكمته من يشاء ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

فذلك القريب عهداً بالصبا ، يأخذ فى التأمل ليرى «أن صبيان النصارى لا يكون لهم نشوّ إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لانشو لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشو لهم إلا على الإسلام» .

أرأيت هذه النفس الصبية ، العاقلة المفكرة ؟ إنها لا تنصرف إلى ما ينصرف إليه مَن فى مثل سنِّ صاحبها ، من لهو وعبث، بل إن مرادها شيء آخر: طلب الحقيقة ! فهو يحدث نفسه « إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلابدّ من طلب حقيقة العلم ؛ ما هى ؟ » .

إن نفس الغزالى الصبى ، هى عين نفس الغزالى بعد ماكملت وصقلت ، ونضج صاحبها وأصبح يدعى بحجة الإسلام . بذرة صالحة من يوم أن زرعت ، فلم تزدها الحياة إلا كمالا ، إنا لنعرف قول المصطفى عليه الصلاة والسلام « ليس منا من دعا إلى عصبية ». فالمتسامحون هم المؤمنون حقاً ، وهم أصحاب القلوب الكبيرة ؛ فتعال بنا نلق نظرة على الغزالى

وهو قريب عهد بالصبا ، لنراه قد جعل دستوره ، التسامح مع الناس ، والبعد عن العصبية ولكأنا به وقد مر عليه صبيان النصارى ، لا يعرف لنفسه فضلا عليهم ، وإن كان دينه القيم ، وهو عند الله الإسلام ؛ فهو وإياهم سواء . فأولئك إنما وجدوا آباءهم نصارى ، فاقتدى بالآباء أبناء ؛ وهو ألم يجد أباه مسلما فكان ؟

ثم يمر عليه صبيان اليهود فيهشّ لهم ، إنهم يتبعون آباءهم ؛ لقد هوّدوهم !

ويمر عليه صبيان المجوس ، وتأبى نفسه الفتية الكريمة إلا أن تجد لهم عذراً ، لقد مجستهم الآباء .

ثم يمر عليه صبيان دينه فرحين مستبشرين ، لهم نشوة على الإسلام . ولكن، ما فضل أولئك على هؤلاء؟ أيدرى أولئك الصبيان أى دين حملوا، فلهم به على الآخرين خيلاء ؟ أم هكذا وجدوا آباءهم **الأولين** ؟...

هنا تسعف الغزالى نفسه بجواب ، إنه الحديث المروى عن سيد المرسلين «كل مولود يولد على فطرة الإسلام، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه» .

وعندما يتحرك باطنه « إلى طلب حقيقة الفطرة

الأصلية وحقيقة العقائد العارضة ، بتقليد الوالدين والأستاذين . والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات».

إنه علم من نوع آخر إذاً ، ذلك الذى راح يطلبه الغزالى ؛ فهو يطلب العلم اليقينى .

– وما العلم اليقينى ؟

– «هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا ، لا يبقى معه ريب ، ولايقاربه إمكان الغلط والوهم ، ولايتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة ، لو تحدى باظهار بطلانه مثلا ، من يقلب الحجر ذهبا ، والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وإمكانا . فانى إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى قائل : لا بل الثلاثة أكثر بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها وشاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه فى معرفتى ، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، فأما الشك فيما علمته فلا » .

ذلك هو العلم اليقينى ، كما عرفه الغزالى وأراده ، فراح ينشده. إنه ذلك العلم الذى لم يأخذه وراثة عن

والدين ، أو تقليداً عن أحد ؛ إنه ذلك العلم الذى تبلغ درجة اليقين به ، ما نم عنه المثل الذى ضربه ، فلا أحد يقدر على تشكيكه فى معرفته، وإن قلب أمامه العصا ثعبانا فلا يكون لذلك من أثر فى نفسه سوى التعجب من تلك القدرة ، لا الشك فيما قد علم . هو يريد أن يعرف العلم اليقينى ، فيعرف أهله ، لا أن يعرفه من أحد بلغت ما بلغت حجته، أو تناهت ما تناهت قدرته ؛ فهو إذ يعلم بأن العشرة أكثر من الثلاثة فلن يتحول عن معرفته تلك ، وإن سحروا عينه ، واسترهبوه وأتوا بكل سحر عظيم . وذلك هو العلم الذى ينفع صاحبه . وكما أن الله سبحانه وصف الذين أمنوا بالله ولم يرتابوا بأنهم هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ، فكذلك ذلك النوع من العلم الذى ينشده الغزالى ولا تتبعه ريبة ، يكون أصحابه ممن يصح وصفهم بأنهم هم العالمون حقاً ، ويقيناً . فكما أن المؤمن لا يرتاب ، وإن لقى ما لقى من هول وعذاب ، بل يقول ما كان يقوله بلال رضى الله عنه ، مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقريش تحرق ظهره على رمال

الهجيرة أحد أحد ، دون أن يرتاب بالله قلبه ، أو تفتر عن الإسلام همته ، مع أنه لو تلفظ بكلمة الكفر ، وهو مضطر ، لما آخذه الله بشيء إذ يقول سبحانه « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » ولكنه آثر الهلاك وهو مؤمن قلبا ولسانا ، على العافية مادام فيها تلويث للسانه المجبر ، دون قلبه المطمئن .

أما الريبة ، ولماذا يتركه الله وهو المخلص له ، ليعذب بأيدى من عصاه ، وهو القادر على إنقاذه فإنه سبحانه يقول « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . وما كان بلال ليرتاب فيسأله ذلك وإن لقى الأمرّين ، فهو المؤمن حقاً له عند ربه مغفرة ورزق كريم .
ذلك هو الإيمان الذى لاتتبعه ريبة ، والغزالى يريد علما كهذا ، لا تتبعه ريبة ؛ فكما أن بلالا إذ آمن بربه ، إيماناً يقينياً ، لا يسأله عما يفعله معه ، ولا يقلل إيمانه بريبة ، فعل مخلوق ، بل إيمانه باق على حاله إن لم يزد ، فكذلك العلم اليقينى الذى لاتتبعه ريبة ، يبقى صاحبه عليه ، وإن قلب له صاحبه وهو يحاوره فيه ، العصا ثعبانا أوالحجر ذهبا ، ليثبت له عكس ما يعتقده . فحسبه تعجباً من قدرة ، لاشكا فيما يعلم .

أما كل ما لا يعلمه الغزالى، على ذلك الوجه، ولا يتيقنه هذا النوع من التيقن « فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقينى » .

وكذلك راح يطلب الغزالى ، علمه اليقينى ، ولكن كيف السبيل ؟

الفصل الثالث

العلم اليقينى وكيف هدى الله الغزالى طريقه

وقف الغزالى حائراً ، يقلب أنظاره فى سماء المعرفة ، وكواكب العلوم تترى أمامه؟ ما يكاد يبزغ كوكب منها ، حتى يأفل . إن مراده العلم اليقينى ، وذاك ما بزغ بعد كوكبه . وهناك بعيداً ... رأى كوكبا بازغاً ، ظنه أربه .

عل كوكبه هذا هاديه العلم اليقينى !

سترى ما يكون من شأن « الحسيات ، والضروريات » معه . فالغزالى لا يجد ما يصح أن يكون هاديه للعلم اليقينى ، إلا الحسيات والضروريات

« فقلت الآن بعد حصول اليأس : لامطمع فى اقتباس المشكلات إلا من الجليات ، وهى : الحسيات والضروريات » .

وهنا يقبل الغزالى على المحسوسات والضروريات يتأمل فيها كما يقول «بجد بليغ» ؛ ليرى إن كانت ثقته بالمحسوسات، وأمانه من الغلط فى الضروريات تكون «من جنس أمانى الـذى كان من قبـل فى التقليديات. ومن جنس أمانى أكثر الخلق فى النظريات أم هو أمان محقق، لاغدر فيه، ولاغائلة له ؟» .

وهنا يتساءل الغزالى : هل يمكنه أن يشكك نفسه فى المحسوسات ؟

يطول به التشكك، وأخيراً، يصل إلى قرار:

«لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضاً» . ولكن كيف وصل حجة الإسلام إلى قراره هذا ؟ ولم رفضت نفسه تسليم الأمان للمحسوسات، لذلك عنده سبب . إن حاسة البصر هى أقوى ما فى المحسوسات، فإذا اطمأن الغزالى اليها، فربما استطاع أن يركن بعض الشيء إلى ما تقوله هذه المحسوسات، بادئاً بأقوى ما فيها – حاسة البصر – ثم يتمشى بعد ذلك مع باقيها .

أما وقد رفض الأخذ بأقوى ما فى المحسوسات– وهى حاسة البصر – فدهى أن يرفض الأخذ بما

عداها، وما يقل قوة عنها. وعلى ذلك يستبعد الغزالى المحسوسات من نطاق العلم اليقينى .

ولكن لم رفض الغزالى تلك الحاسة القوية – حاسة البصر – حتى لا نراه يسلم لها بشىء ؟

– لأنها «تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفى الحركة» .

«وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار» . ثم تجىء التجربة والمشاهدة، فتجد الظل بعد ساعة قد تحرك، وإن كان تحركه تدريجياً، ذرة فذرة . إذن خدعنا البصر فيما رأى، وما كان للظل وقوف .

ثم تجىء الأدلة الهندسية، فتثبت لنا أن الكواكب أكبر من الأرض مقداراً، إذن :

فالنجم يبدو للعيون وهو مصغر
والعيب للطرف لا للنجم فى الصغر

إذن ثم حاكمان : حاكم الحس، وحاكم العقل. وكلاهما يناقض فى حكمه الآخر، فأيهما نصدق ؟

يأتى لنا حاكم الحس بأحكامه، فيأتى حاكم العقل ويكذبه «ويخوله تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته» .

... «وقد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً» .

وعلى ذلك فليس من بد أن يحتكم الغزالى إلى العقليات التى هى من الأوليات . إنه يسعى وراء العلم اليقينى ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . يضرب لنا الغزالى أمثلة لتلك بأن «العشرة أكثر من الثلاثة، والنفى والاثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحـــد ، والشىء الواحد لا يكون حادثا قديماً ، موجوداً معدوما ، واجباً محالا» .

وهنا تنبرى المحسوسات بعـــد ما هزمت أمام العقليات ، تريد الثأر لنفسها ، فتقول له : «بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بى فجاء حاكم العقل فكذبنى ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى . فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر . إذا تجلى كذّب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذّب الحس فى حكمه . وعدم تجلى ذلك الإدراك ، لا يدل على استحالته» .

— أيتها الحالة الخفية ، ترى ما عساك تكونين ؟

هنا تتوقف نفس الغزالى قليلا . فلا تجد لما قالته

المحسوسات جوابا ؛ فضرب الشك حواليه نطاقا ، وأحاط به سرادقه. يتلمس سُدًى منه مهربا وخلاصا؛ لقد أحكم حواليه وبات من شكه فى ظلام.

وفى السرادق فتحات ثلاث . فقصد الغزالى الفرجة الأولى وما هو بخارج منها؛ لقد وقف على بابها حارس قوى من حراس الشك. يمنعه الخروج من سرادق الشك إن أراد .

— أيها الحارس دعنى ، هل إلى خروج من سبيل؟

— بل تبقى هنا ، وإن طال بك المقام . سأزيدك شكا حتى تبقى من شكك فى ظلام . كيف تمر من الشك وثم «منام» ؟ وإنى لحارس للشك عتيد.

لقد سمعت ماحدثتك به المحسوسات وأزيدك «أما تراك تعتقد فى النوم أمورا وتتخيل أحوالا . وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ، ولاتشك فى تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ! فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل ، هو حق بالإضافة إلى حالتك ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة . تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون

يقظتك نوما بالاضافة اليها، فإذا أوردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ماتوهمت بعقلك خيالات لا أصل لها ؟ ».

ـ صدقت ، وما يدرينى ؟ !

وهنا يقصد الغزالى الفتحة الثانية ، فلا يكون نصيبه معها ، خيراً من نصيبه مع الأولى. إن ببابها هى الأخرى لحارسا للشك منيعاً .

وقف الغزالى يتأمل ذلك الحارس وقد علق على حربته المنتضاة ـ لمن أراد الخروج ـ علما نقشت عليه العبارة الآتية « حالة الصوفية » .

حاول الغزالى أن يظفر بشىء من ذلك الحارس الذى لا يعيره التفاتا، ولا يرد عليه حتى بكلمة، فلم يستطع ، إنه من القوم الذين :

شغلتهم عبادة الرحمن حتى
حسب الناس أن بهم جنونا

وهنا تأتى نفس الغزالى فتقول له : دعه « إنها حالتهم ؛ إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى لهم ، أنهم إذا غاصوا فى أنفسهم وغابوا عن أحوالهم

وحواسهم ، رأوا أحوالا ، لا توافق هذه المعقولات».

فينصرف عنه الغزالى آيسا وقد تزايد شكه .

لم تبق أمام الغزالى إلا فتحة واحدة، فيمم وجهه شطرها ... إن بباب تلك مثل الأولين حارساً ، إذن هن فتحاث للشك ثلاث ، لا للخلاص منه .

إن بباب الأخيرة حارساً أخطر من السابقين ، وأشد تشكيكاً للغزالى . إنها فتحة الموت ، وببابها يقف حارسه ، سمعه يقول :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » . ولعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة . فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن، ويقـال له عند ذلك : « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

وهكذا أخذ الغزالى يزداد شكا وحيرة . فقد شك أولا فى المحسوسات وشككته تلك ـ كما رأيت ـ في المعقولات ، وحدثته بعدم قيام مانع من وجود حالة « إدراك » خافية علينا الآن ، يكون موقفها من العقليات موقف العقل من الحسيات ؛ وإذا كان

ذلك الإدراك غير متجل الآن؛ فان هذا لا يدل على استحالته .

ثم تزيده نفسه شكا بالأمثلة الثلاثة : المنام ، وحالة الصوفية ، والموت ، على ما بيناه لك ، مع شيء من التصرف .

فلنسمع إذن ما يقوله الغزالى عن نفسه بعد أن وصل إلى هذه الدرجة من الشك .

« فلما خطرت لى هذه الخواطر ، وانقدحت فى النفس ، حاولت لذلك علاجا ، فلم يتيسر ، إذ لم يمكن دفعه إلا بدليل ، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية » .

أما عن تلك العلوم الأولية ، فان الغزالى لا يسلم بهـــــا – كما رأيت – وعلى ذلك ماكان لـــه أن ينصب منها دليلا .

– كم لبث الغزالى فى حيرته هذه ؟

« فأعضل هذا الداء ، ودام قريبا من شهرين » . لبث فيهما الغزالى على مذهب السفسطة ، ولكن «بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال » .

ولكن الله سبحانه ما كان ليذر عبداً من عباده

المخلصين ، يضل ويشقى ؛ لقد وجده ضالا فهدى ، وكان فضل الله عليه عظيما . فعادت هذه النفس المريضة ، إلى الصحة والاعتدال «ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين » .

ولكن كيف شفاه الله تعالى من ذلك المرض؟ لكأنى بذلك إنما جاء مصداقا لقوله تعالى : «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» «ولم يكن كل ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام » .

فعلى أية صورة أتاه اليقين إذن ؟

« بنور قذفه الله تعالى فى الصدر» .

إذن جاء علم الغزالى اليقينى عن طريق ذلك النور الإلهى ، «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » ، ولم يجىء عن طريق محسوسات أو عقليات ، بل قذفا به من الله فى صدره .

فما هو ذلك النور ؟

« ذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة » .

وهنا يأخذ الغزالى فى الاستدلال على كنه ذلك

النور ، من آيات الله حيناً ، ومن أحاديث الرسول عليه السلام حيناً آخر. لقد شرح الله للغزالى صدره، ويسر له أمره ، وجعل له من بعد عسر يسراً وما كان ليهتدى لولا أن هداه الله. فلا المحسوسات أجدته ، ولا العقليات نفعته . وفى ذلك يتمثل الغزالى بقوله تعالى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » . ويقول بأنه لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح هنا ، فى هذه الآية « قال : نور يقذفه الله فى القلب فيشرح به الصدر . فقيل ، وما علامته ؟ قال : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » .

وهكذا أرى الله الغزالى آياته فى الآفاق وفى نفسه حتى تبين له الحق الذى ينشده : العلم اليقينى !

وهو لن يدعك تعجب من ذلك ، فهو يذكرك بقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: « إن الله تعالى قد خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره » «فمن ذلك النور ينبغى أن يُطلب الكشف» .

ولكن أين يوجد ذلك النور ؟ وهل يضىء بين يدى طالبه ، كلما ، وأنى ، أراد ؟

– « ذلك النور ينبجس من الجود الإلهى » .

– ليس دائما بل « فى بعض الأحايين ، ويجب الترصد له » .

إن لذلك الكشف سُلما ، عديد الدرجات ، ومرتقوه طبقات، وما كان الغزالى لينسى أن « لربكم فى أيام دهركم نفحات » كما ورد فى الحديث . فأما الذين تعرضوا لها ، فأولئك لهم الدرجات العلى ، فهنيئاً للغزالى هذه النفحة العلوية !

وكذا من يؤمن بالله يهد قلبه، ومن هدى الله قلبه ، فقد جعل فيه نوره ، ومن كان نور الله فى قلبه ، فهو ينظر بنور الله ، وما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ؟ !

وهكذا « وصل » الغزالى إلى الطريق القويم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، فهو الذى يهديه إلى العلم اليقينى. وهو لم يصل إلى ذلك إلا بعد أن فتح الله عين بصيرته ـ فقد أراد به خيراً ـ وقذف نوره فى قلبه ، فعرف أن « الكشف » سبيله لما يريد !

وذا ليس بالسهل مطلبا ، فعليه إذن « أن يعمل كمال الجد فى الطلب ، حتى ينتهى إلى طلب

ما لا يطلب . فإن الأوليات ليست مطلوبة فإنها حاضرة ، والحاضر إذا طلب فقد واختفى ، ومن طلب ما لا يطلب . فلايتهم بالتقصير فى طلب ما يطلب» !

لقد رجع إذن للغزالى إيمانه بالمحسوسات ، والمعقولات ، بذلك النور الذى قذفه الله فى قلبه فزال شكه كما رأيت «ورجعت الضروريات العقلية مقبولة . موثوقا بها . على أمن ويقين» .

وسنرى بعد . ما يكون من شأنه مع الصوفية ، وما بلغه فى «الكشف» من درجة ، بعد أن نذكر ما ذكره فى أصناف الطالبين.

الفصل الرابع

ما ذكره الغزالى فى أصناف الطالبين

شفى الله الغزالى بعد ماعذبه الشك كما قدرأيت طويلا . فاطمأنت نفسه . وفتح الله عين بصيرته ، مصداقاً لقول سيد البشر . محمد صلوات الله وسلامه عليه: ما من عبد إلا ولقلبه عينان ، وهما عينان يدرك بهما الغيب ، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً ، فتح عينى قلبه . ليرى ماهوغائب عن بصره .

فأصبح الغزالى يرى بنور الله ، وتلك فراسة المؤمنين . وهنا يقبل على أصناف الطالبين ، حتى تنحصر لديه فى فرق أربع .

(المتكلمون) «وهم يدعون أنهم أهـل الرأى والنظر» .

و(الباطنية) «وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصصون بالاقتباس من الإمام المعصوم» .

و(الفلاسفة) «وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان» .

و(الصوفية) «وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة» .

ولكنه لن يعطى رأيا فى إحدى هذه الفرق الأربع حتى يدرس مبادئها ، ويلم بعقائدها ، فإذا أبدى رأيه أبداه عن بينة ، وإذا اقتنع فعن حجة وبرهان ، لا تقليداً واتباعا .

رأى الغزالى أن «هؤلاء هم السالكون سبيل طلب الحق ، فان شذ الحق عنهم فلا يبقى فى درك الحق مطمع» .

وهكذا تظهر بوضوح، الطريقة العلمية المثلى للغزالى فى البحث . فهو يدرس أولا ويناقش بعد ذلك . إن شعاره فى البحث والمقارنة هو الآتى :

«لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوى أعلمهم فى أصل العلم . ثم يزيد عليه. ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم

يطلع عليه صاحب العلم من غور ، وغائلة ، فاذذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً» .

أرأيت هذه الخطة فى البحث ؟ فمن ذا الذى يستطيع أن يرمى صاحبها بالتقليد الأعمى . أوبالرأى المغرض الذى يبنى على غير أساس ؟

إن شأن الغزالى البحاثة هو ما قاله الحكيم العربى:

وفضلنى فى القول والشعر أننى
أقول على علم وأعلم ما أعنى

ليس الغزالى ممن يقولون ما لايفعلون ، فبعد أن كوّن شعاره فى البحث ، وانتهى من رسم الخطة ، جاء دور التنفيذ .

«فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ماعند هذه الفرق» .

ويحق لك أن تطمئن بعد ذلك ، إلى أن الغزالى ما وصل لرأيه الذى كونه ، والذى نشره للناس عامة فى منقذه من الضلال ، إلا بعد أن بحث ودرس ، وبعد أن شرح الله من قبل صدره ، على ما صدر به اعترافاته .

بدأ الغزالى بعلم الكلام ، وثنّى بطريق الفلسفة ، وثلث بتعليمات الباطنية ، وختم بطريق الصوفية .

وسنفرّد فصلا لكل ، لتعلم رأى الغزالى بوضوح فنهج سبيله واضح لمن اهتدى .

ولكنها الأهواء عمت فأعمت !

الفصل الخامس

ماذكره الغزالى فى علم الكلام ــ مقصوده وحاصله

« ثم إنى ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته » .

طالع الغزالى كتب المتقدمين المحققين فى ذلك العلم ، ولم يكتف بذلك بل صنف فيه ما أراد . ترى ما عسى أن يكون حكمه على ذلك العلم بعد أن خبره وتفقه فيه ، ووضع ما وضع فيه من مؤلفات ؟

إليك حكمه :

« فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودى » .

فما هو مقصود علم الكلام ، وما هو مقصود الغزالى ؟ ولم اختلف المقصدان ؟

مقصود علم الكلام هو حفظ عقائد أهل السنة

على أهلها ، وذب تشويش أهل البدعة عنها « فقد ألقى الله سبحانه إلى عباده ، على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عقيدة هى الحق على مافيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار » .

وهنا يجىء الشيطان فيلقى فى وساوس المبتدعة أموراً تخالف السنة ، فاذا بهم يلهجون بها حتى يشوشوا عقيدة الحق على أهلها ، ولكن الله البصير بالعباد ما كان ليضيع إيمان المؤمنين ، فأوجد برحمته طائفة المتكلمين ، فحرك بقدرته دواعيهم ، فاذا هم لنصرة السنة المأثورة يعملون « بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة على خلاف السنة المأثورة » . ومن هذا نشأ علم الكلام وأهله ، حيث قامت طائفة منهم مباركة ، مؤيدة من الله سبحانه ، تذب عن السنة ، وتناضل عن العقيدة ، هذه العقيدة « المتلقاة بالقبول من النبوة » فاذا هى تغير كل ما أحدثته البدع من الضلال .

فاذا عرفنا بهذا مقصود علم الكلام ، تساءلنا كيف يختلف مقصود الغزالى عنه ؟ ولكنا نسارع

بالقول : إن الغزالى لايختلف مقصوده عن مقصود علم الكلام ، بل هو غير كاف به ، إذ يريد الغزالى طريقة لنفسه ، غير ما أرادها المتكلمون .

فالمتكلمون « اعتمدوا على مقدمات تسلموها من خصومهم ، اضطرهم إلى تسلمها ، إما التقليد أو إجماع الأمة أو مجرد القبول من القرآن والأخبار » لذلك يرى الغزالى أن أكثر خوضهم إنما كان فى استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم « وهذا قليل النفع فى حق من لايسلم سوى الضروريات شيئا أصلا » .

وعلى ذلك ينصرف الغزالى عن علم الكلام ، ويقول « لم يكن الكلام فى حقى كافيا ، ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافيا » .

نعم يعرف الغزالى أنه حين نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه ، مع طول المدة ، نزع المتكلمون إلى البحث عن حقائق الأمور ، وخاضوا فى البحث عن الجواهر والأعراض ، متجاوزين بذلك الذب عن السنة ، وهى مقصودة علم الكلام أصلا . ولكنهم فى هذا الخروج عن مقصود علمهم « لم

يبلغ كلامهم فيه غايته القصوى » . فلم يكن فيما ذكروه ، هدى لحائر . ولا إنارة لظلمة ، فيها الخلق يختلفون .

ولكن الغزالى لا يبعد أن يكون قد حصل لطائفة غيره هدى على يد هؤلاء ، لم ينله هو . إذ هو لا يشك « فى حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولا مشوبا بالتقليد فى بعض الأمور ، التى ليست من الأوليات » .

ولما كان غرض الغزالى – كما يقول – أن يقص حكاية حاله هو لذا لن يتعرض بالانكار على من استشفى بذلك العلم ، أو وجد فيه هدى « فان أدوية الشفاء ، تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء ينتفع به مريض ، ويستضر به آخر » .

وهكذا نفض الغزالى يديه من علم الكلام ، ليجرب حظّه مع الفلسفة .

الفصل السادس

الغزالى والفلسفة

« ثم إنى ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة » .

ورد الغزالى حوض الفلسفة ، مغترفا يسبر لحوضها غورا ، ويعرف لمائها طعما ، متفرسا فى « ما يذم منها وما لا يذم ، وما يكفر فيه قائلة وما لايكفر ، وما يبتدع فيه وما لايبتدع ، وبيان ماسرقوه من كلام أهل الحق ومزجوه بكلامهم ، لترويج باطلهم فى درج ذلك ، وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق ، وكيفية استخلاص صراف الحقائق ، الحق الخالص من الزيف والبهرج ، من جملة كلامهم » .

والغزالى كما رسم لنفسه الطريق ، لن يحكم بفساد علم أو صلاحه حتى يساوى أعلم العلماء فى

أصله ، ثم يزيد عليه ، حتى لا يكون ممن يجادل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير « فان رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كهنه . رمى فى عماية » .

هنا يرجع الغزالى البصر إلى علماء الاسلام فلا يجد « أحدا من علماء الاسلام صرف همته الى ذلك » . فيرجع البصر كرتين الى المتكلمين ، حيث اشتغلوا بالرد على الفلاسفة فلا يجد فى كتبهم « إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد ، لايظن الاغترار بها بغافل عامى ، فضلا عمن يدعى حقائق العلوم » . هذا أوان الشد فاشتدى زيم . فليشمر إذن « عن ساق الجد ، فى تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ومعلم » .

ولكن الغزالى مشغول بالتدريس والتصنيف فى العلوم الشرعية ، إذ هو - كما يقول - ممنو بالتدريس والافادة لثلاثمائة نفر من الطلبة ببغداد . فكيف يتيسر له لدراسة الفلسفة وقت ؟

حسبه أوقات الفراغ يطلعه الله « بمجرد المطالعة

فى هذه الأوقات المختلسة ، على منتهى علومهم ، فى أقل من سنتين » .

ثم قضى الغزالى قريبا من سنة أخرى ، مواظبا على التفكر فى ذلك العلم بعد أن فهمه ، فلبث يعاوده ، ويردده ، ويتفقد غوائله وأغواره ، وآنئذ تكشف له ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخيل - على حد قوله - بشكل ليس فيه الى الشك من سبيل .

« فاسمع الآن حكايته وحكاية حاصل علومهم »: رأى الغزالى الفلاسفة أصنافا ، وخبر علومهم أقساما « وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم سمة الكفر والالحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم فى البعد عن الحق والقرب منه » .

تقسيم الغزالى للفلاسفة، ووسم كافتهم بالكفر

الفلاسفة عنده أقسام ثلاثة

الصنف الأول : الدهريون ، وهى تلك الطائفة التى جحدت الله منكرة وجوده ، فليس للعالم عندها من صانع مدبر . وهم يزعمون أن العالم وجد بنفسه ، لا صنعة الله الذى أتقن كل شيء ، خلقه ثم هدى . فالحيوان لم يزل «من نطفة ، والنطفة من حيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبدا . وهؤلاء هم الزنادقة » . ما قدروا الله حق قدره .

الصنف الثانى : الطبيعيون ، وهم أولئك الذين طال بحثهم فى الطبيعة ، وقد رأوا الله فى آياته ، فهم يعترفون بوجوده ، ولكن «هؤلاء لكثرة بحثهم فى الطبيعة ، ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوى الحيوان ، فظنوا أن القوة العاقلة فى الانسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم . ثم اذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا ، فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود،

فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام . وهؤلاء أيضا زنادقة ، لأن أصل الايمان هو الإيمان بالله وبالرسول واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وإن آمنوا بالله تعالى وبصفاته » .

الصنف الثالث الالهيون ، ويضرب الغزالى سقراط ، أستاذ أفلاطون ، لهم مثلا ، ويذكر عن أفلاطون أنه «أستاذ أرسطاطاليس . وأرسطاطاليس هو الذى رتب لهم المنطق . وهذب العلوم ، وخمر لهم ما لم يكن مخمراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم . وهم بجملتهم ردوا على المصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم «وكفى الله المؤمنين القتال» بتقاتلهم . ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين رداً لم يقصر فيه ، حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع

منها ، فوجب تكفيره وتكفير متبعيه من متفلسفة الاسلاميين ، كابن سينا والفارابى وأمثالهم . على أنه لم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من المتفلسفة الاسلاميين كقيام هذين الرجلين . وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم ، وما لا يفهم كيف يرد أو يقبل ؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر فى ثلاثة أقسام : قسم يجب التكفير به ، وقسم يجب التبديع به ، وقسم لا يجب إنكاره أصلا » .

وهكذا نرى الغزالى يقسم الفلاسفة ذلك التقسيم الثلاثى رغم كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم – على حد قوله – فالقسم الأول والثانى عنده من الغاوين ، بين كافر ومبتدع ؛ أما القسم الثالث منهم – الإلهيون – فقد رأينا كيف قسم فلسفة أرسطاطاليس الى ثلاثة أقسام ، أخذ بواحد منها فقط « لا يجب إنكاره أصلا » .

الغزالى وتقسيم علوم الفلاسفة

بعد أن خلص للغزالى أن الفلاسفة أقسام ثلاثة

كما تقدم ، أخذ ينظر فى تقسيم علومهم ، ولكن من ناحية الغرض الذى يطلبه ، وتلك ملاحظة هامة ، فوجدها أقساماً ستة .

رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخلقية .

« أما الرياضية ، فتتعلق بعلم الحساب والهندسة ، وعلم هيئات العالم ، وليس يتعلق منها شىء بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هى أمور برهانية ، لا سبيل الى إنكارها بعد فهمها ومعرفتها »

بيد أن الغزالى يرى أن هذا القسم لم يسلم من الآفات ، بل تولدت من الرياضيات آفتان : إحداهما : أن من ينظر فيها ، وتظهر له براهينها ، يأخذه العجب من هذه الدقائق ، فاذا به قد أحسن بالفلاسفة ظنه ، واذا بنفسه تحدثه بعظم علم هؤلاء ، وأن الصواب ما يفعلونه ، والخطأ ما يتركونه . ولما كان (أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبى ، وينظرون إلى ذلك بعين الغبى) ويا طالما أعمت الفلسفة عن الله نظر صاحبها ، وجعلت على قلبه غشاوة ، فان ذلك المعجب بهم ، المحسن ظنه فيهم ، لهو وشيك أن

يتردى فى حفرة ، هم فيها من قبله تردوا . أليسوا هم قائديه ، وهو ظلهم ، وهل يستقيم الظل والعود أعوج ؟ لربما يسمع ذلك الشخص «من كفرهم وتعطيلهم ، وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة ؛ فيكفر بالتقليد المحض . ويقول : لو كان الدين حقاً ، لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم فى هذا العلم ! فاذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم ، فيستدل على أن الحق ، هو الجحد والإنكار للدين » .

وهنا يورد الغزالى دفعاً قوياً ، فيقول لذلك الشخص الذى ضل عن الحق تقليداً للفلاسفة على ما بيناه لك : «إن الحاذق فى صناعة واحدة ، ليس يلزم أن يكون حاذقاً فى كل صناعة ؛ فلا يلزم أن يكون الحاذق فى الفقه والكلام حاذقاً فى الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلا بالنحو ؛ بل لكل صنعة أهل ، بلغوا فيها رتبة البلاغة والسبق وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم فى غيرها . وكلام الأوائل فى الرياضيات برهانى ، وفى — الإلهيات تخمينى ، لا يعرف ذلك إلا من جربه وخاض فيه »

لكن الغزالى ، مع قوة حجته فى دفعه هذا ، لا يطمئن لفهم ذلك الشخص الذى ألحد تقليداً . فهو يعلم سلفاً موقع كلامه من نفسه :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى

لو كان عقله مستقلا ، لوقع ذلك الدفع الغزالى منه موقع القبول ، ولكنه «لا يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ، وشهوة البطالة ، وحب التكايس ، على أن يصر على تحسين الظن بهم فى العلوم كلها » .

لذلك دعا الغزالى الى زجر كل من يخوض فى تلك العلوم — من صنف ذلك الرجل — من أجل هاته الآفة . فان من يخوض فى هاته العلوم ، يكون عرضة لأن تسرى اليه من فلاسفتها عدواهم وشرهم وشؤمهم «وقلّ من يخوض فى ذلك إلا وينخلع من الدين ، وينحل عن رأسه لجام التقوى » .

أما عن الآفة الثانية فتلك يردها الغزالى ، الى صديق للاسلام جاهل «ظن أن الدين ينبغى أن ينصر بانكار كل علم منسوب اليهم ، فأنكر جميع علومهم ، وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم فى الكسوف

والخسوف ، وزعم أن ماقالوه على خلاف الشرع !». فيأتى شخص عرف ذلك بالبرهان القاطع ، فلا يشك فى برهانه ولكن يسيىء بالاسلام ظناً ، ويحسب أن الاسلام قد بنى على الجهل وإنكار البراهين القاطعة فينزع عن الدين إلى الفلسفة هروبا بعقله ونجاة بنفسه «ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الاسلام ينصر بانكار هذه العلوم ، فليس فى الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى والإثبات ، ولا فى هذه العلوم تعرض للأمور الدينية » .

والواقع أن الاسلام ممثّل فى القرآن الكريم . لم يتعرض لأمثال هذه العلوم حين تعرض لها ، مقرراً للكثير من النظريات العلمية الكونية ، أو النواميس الطبيعية ، إلا – كما يقول أستاذناعبدالوهاب بك خلاف فى كتابه القيم فى أصول الفقه (١) فى معرض الاستدلال على وجود الله وقدرته ووحدانيته «لأن القرآن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، لتقرير نظريات علمية أو بيان حقائق فلكية . ولكن إذا اقتضى الاستدلال على وجود الله وقدرته لفت

(١) ص ٢١.

العقول إلى آيات كونية ونواميس طبيعية قرر من هذه الكونيات ما يقوم برهانا على وجوده ووحدانيته ووفرة نعمه على خلقه . وما قرره القرآن من هذه الآيات والنظريات لم يكن للناس علم بها وقد كشفت الأيام براهين صحتها ، وأظهر العلم الحديث أدلتها .. .. الخ » .

بعد أن نفى الغزالى تعرض الشرع لهذه العلوم ، أو تعرض هذه العلوم للامور الدينية ، دفع شبهة قد تجىء من الحديث الشريف : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله وإلى الصلاة . فنص على أن «ليس فى هذا ما يوجب إنكار علم الحساب المعرف لمسير الشمس والقمر واجتماعهما أو مقابلتهما على وجه مخصوص » .

وذكر كذلك أن قوله عليه السلام ، بأن الله اذا تجلى لشىء خضع له بأن «ليست توجد هذه الزيادة فى الصحاح أصلا » .

وهكذا بين لنا الغزالى حكم فلسفة الرياضيات ، وما فيها من آفة .

« وأما المنطقيات . فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً بل هو النظر فى طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها وشروط الحد الصحيح . وكيفية ترتيبها ، وأن العلم إما تصور وسبيل معرفته الحد . وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان . وليس فى هذا ما ينبغى أن ينكر . بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر فى الأدلة . وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات . وبزيادة الاستقصاء فى التعريفات والتشعيبات . ومثال كلامهم فيها قولهم : اذا ثبت أن كل (ا) (ب) لزم أن بعض (ب) (ا) أى اذا ثبت أن كل إنسان حيوان ، لزم أن يكون بعض الحيوان إنسان . ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية . تنعكس موجبة جزئية »

وعند ذلك يتساءل الغزالى :

« وأى تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر ؟ وإذا أنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد فى عقل المنكر بل فى دينه الذى يزعم أنه موقوف على مثل هذا الانكار ! » .

لم يرض الغزالى كذلك عن هذا النوع من

العلم ، ورأى فيه بالمثل آفة ، ورأى للمناطقة نوعاً من الظلم فته « وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطا يعلم أنها تورث اليقين لا محالة ، لكنهم عند الانتهاء الى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط . بل تساهلوا غاية التساهل . وربما ينظر فى المنطق أيضاً من يستحسنه ويراه واضحاً ، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين . ويستعجل بالكفر قبل الانتهاء الى العلوم الالهية » .

لذلك ألحق الغزالى هذا القسم بسابقه .

« وأما علم الطبيعيات ، فهو بحث عن أجسام العالم والسموات وكواكبها ، وما تحتها من الأجسام المفردة كالماء والهواء والتراب والنار ، ومن الأجسام المركبة كالحيوان والنبات والمعادن وما تحتها ، وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها . وذلك يضاهى بحث الطبيب عن جسم الانسان وأعضائه الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مزجها » .

ويقول الغزالى : كما أن الدين لا ينكر علم الطب ، فهو لا ينكر أيضا ذلك العلم إلا فى مسائل معينة .

وقد أورد الغزالى هذه المسائل فى كتابه « تهافت الفلاسفة » فحصرها فى » أحكام(١) النجوم ، الزجر ، الكهانة . الفراسة . التعبير الطلسمات . الحيل ، الكيمياء » .

« وما عداها مما تجب المخالفة فيها . فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها ؛ وأصل جملتها أن يعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى لا تعمل بنفسها بل هى مستعملة من جهة فاطرها ، فالشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . لا فعل لشىء منها بذاته عن ذاته »

ذلك ما ذكره الغزالى فى علم الطبيعيات .

« وأما الإلهيات . ففيها أكثر أغاليطهم . فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه فى المنطق . ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه . ولقد قرب ارسطاطاليس مذهبه فيها من مذاهب الاسلاميين على ما نقله الفارابى وابن سينا » .

وهنا يرجع الغزالى ما غلطوا فيه الى عشرين أصلا « يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر » .

(١) تهافت الفلاسفة للامام الغزالى ص ١٢١

ولهذا السبب ألف الغزالى كتابه الخالد « تهافت الفلاسفة » لإبطال مذهب الفلاسفة فى هذه المسائل العشرين .

أما عن هذه المسائل الثلاث ، الواجب التكفير فيها ، فالغزالى يراهم فيها قد خالفوا إجماع المسلمين .

« وذلك فى قولهم : إن الأجساد لاتحشر ، وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح المجردة ، والعقوبات روحانية لاجسمانية » . وهنا يقرهم الغزالى فى إثبات الروحانية ، إذ هى كائنة أيضاً ، ولكن هم قد كذبوا فى إنكار الجسمانية . وهم إذ ينطقون ذلك ، إنما بالشريعة يكفرون .

« ومن ذلك قولهم : إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات . فهذا كفر صريح . والحق أن الله لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

« ومنها قولهم بقدم العالم وأزليته »

وهنا يعلن الغزالى بأن أحداً من المسلمين لم يذهب الى شىء من هذه المسائل .

وقد رأى كذلك ، قرب الشقة بينهم وبين

المعتزلة ، إذ نفوا الصفات وقالوا إن الله عالم بالذات لا بعلم زائد عن الذات . ولكن الغزالى يقول بعدم تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

ولقد بين الامام الغزالى – يرحمه الله – فى كتابه « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » خطل رأى من يبادر بتكفير كل ما يخالف مذهبه . ونحن نذكر لك شيئا مما قاله فى كتابه هذا : » من [1] الناس من يبادر الى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع ، ولا ينبغى أن يبادر أيضا الى كفره فى كل مقام بل ينظر فيه ؛ فان كان تأويله فى أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها فلا تكفره . وذلك كقول بعض الصوفية : إن المراد برؤية الخليل عليه السلام الكوكب والقمر والشمس ، وقوله : هذا ربى ، غير ظاهرها . بل هى جواهر نورانية ملكية، ونورانيتها عقلية لا حسية ، ولها درجات فى الكمال ؛ ونسبة ما بينها فى التفاوت كنسبة الكوكب والقمر والشمس ، ويستدل عليه بأن الخليل عليه السلام أجل من أن يعتقد فى جسم أنه إله ، حتى يحتاج الى أن

(1) فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ص ١٣

يشاهد أفوله ! أفترى أنه لو لم يأفل ، أكان يتخذه إلها ، ولم يعرف استحالة الإلهية من حيث كونه جسما مقدراً ؟ واستدل بأنه كيف يمكن أن يكون أول ما رآه الكوكب ، والشمس هى الأظهر وهى أول ما يرى ؟ واستدل بأن الله تعالى قال أولا : « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض» ثم حكى هذا القول ، فكيف يمكن أن يتوهم ذلك بعد كشف الملكوت له ؟ وهذه دلالات ظنية وليست براهين .... الخ » .

وإلى هنا ينتهى قول الغزالى فى الإلهيات بعد أن بين رأيه فيها وفى أهلها على ما رأيت .

« وأما السياسيات » فالغزالى يرى أن جميع كلامهم فيها ، إنما يرجع الى الحكم المصلحية التى تتعلق بالأمور الدنيوية السلطانية ، ومرجعهم فيها أصلان :

كتب الله المنزلة على أنبيائه ، وما أثر عن سلف الأولياء من مأثور الحكم .

لذلك لن يطيل الغزالى وقفته عندها .

« وأما الخليقة ، فجميع كلامهم فيها . يرجع الى

حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها » .

وهنا يعلن الغزالى نتيجة خطيرة ، وهى أن الفلاسفة إذ يتكلمون فى الحكمة الخلقية ، إنما أخذوا ما أتوا به » من كلام الصوفية ، وهم المتأهلون المثابرون على ذكر الله ، وعلى مخالفة الهوى . وسلوك الطريق إلى الله تعالى ، بالإعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم فى مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها ، وآفات أعمالها ، ما صرحوا . فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم . توسلا بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم » .

وهكذا ترى الغزالى قد سلب الفلاسفة كل فضل يدعونه هنا ، وجعلهم عالة على الصوفية الذين انكشفت لهم خبايا النفس .

والواقع أن الصوفية هم أساتذة علم النفس حقا . أليست النفس وسيلتهم إلى الله ؟ فهم يروضون أنفسهم بشتى الطرق حتى لا تضل ويصبح أمرها فرطا ، ويخالفون هواهم حتى يقهروا شهواتهم ، ويتحكموا هم فى أنفسهم ولا يدعوا النفس تحكمهم ،

كما هو الشأن مع غالبية الخلق « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » . والذى يروض نفسه ، لا بد له من معرفتها حق المعرفة أولا ، حتى يعلم ما فيها من خبايا وخفايا ، ومحاسن ومثالب ، فيجاهد النقص ، ويحفظ لها خيرها ، ويكون ذلك مصداقا لقوله تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . لذلك كان التصوف علما وعملا . والصوفى إذ يعالج نفسه هذا العلاج إنما يضع نفسه على المشرحة ، كما يفعل الطبيب مع الأجساد . فالطبيب إنما يشرح الجسد بعد الحياة ، وهيهات أن يرد له روحا . ولكن الصوفى يشرح نفسه حيا بعين بصيرته ، التى نورها الله ليحفظ لها الحياة ، ويجعل لها روحا قويا يستمده من الله « والله ولى المتقين » . وفى ذلك يقول الغزالى فى « إحيائه » الخالد بصدد كلامه على عجائب قدرة الله سبحانه فى خلق عظام الانسان ، مفرقا بين نظرة الطبيب اليها ونظرة الصوفى[1] » فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج فى جبرها ، وأهل الضمائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها. فشتان بين النظرين » !

---

(١) احياء علوم الدين .

لذا ترى الصوفى قد ألم بكل خافية فى نفسه ، ينكشف له بالمجاهدة من أسرار النفس وعيوبها مالا يعلمه إلا من سلك ذاك الطريق ! ويعرف من آفات أعمالها ونزعاتها ما يكون وقاء له فى دينه ودنياه ؛ فهو يعرف الشر على طريقة على بن أبى طالب ، لتوقيه ؛ وغيره لا يعلمه فيقع فيه . لذا عرفنا سقراط فى حكمته الخالدة يقول : «أعرف نفسك» هذا أبو الفلاسفة يقول ذلك . ولكن كيف السبيل ؟

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج
طريقان شتى : مستقيم وأعوج

طريق الصوفية ، أوطريق الفلاسفة ؟ إنك إن إن سرت مع الصوفية عاملا معهم أوقارئا لهم ، عرفت نفسك كما عرفوها ، ووصلت إلى ما وصلوا اليه .

أما الفلاسفة – إن اخترت طريقهم – فهم محدثوك ، ولكن يتعبونك قبل أن تصل معهم إلى شىء ، وقد لا تصل إلى مرادك أبداً معهم . سيتكلمون معك عن النفس ، ولكن ستجد أثر الصنعة فى كلامهم ظاهراً: إن أصابوا مرة ، أخطئوا مرات .

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة :
علمت شيئاً وغابت عنك أشياء !

أما الصوفية ، فأولئك أذن الرحمن لهم ، وقالوا صوابا . إذ هم يعملون بالحديث الشريف : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» .

فالأولون خطؤهم من أنفسهم ، وكل بنى آدم خطاءون ، والصوفية ما بهم من صواب فمن الله . لذا كان من يتحدث عن النفس «كشفا» ، غير من يتحدث عنها علما ، لم يؤت منه إلا القليل .

ولنا فى الغزالى أحسن مثل نسوقه على ماتقول دليلا . انظره كيف تحدث عن النفس وأسرارها ، وكيف عالجها وحللها فى كتابه الخالد «إحياء علوم الدين» ، وقارن ذلك إن شئت ، بما يقوله علماء النفس اليوم ، فستعلم أى الحزبين أقوى ، وأعز نفراً ، وأنصع رأيا ، وأدرى فى النفس من الآخر عرفانا ؟ ولو اتسع لنا المجال لسقنالك من الأمثلة ما فيه الكفاية. وحسبنا الآن الإشارة . وإن «الاحياء» فى متناول الأيدى لمن أراد عليه اطلاعاً . ولقد تحدث الغزالى عن النفس كذلك حديثا طليا فى كتابه الصغير حجما ، والعظيم كيفا «كيمياء السعادة» .

إنه أستاذ علم النفس غير مدافع ، ولكن أكثر الناس لايعلمون!

ونحسب الغزالى قد أصاب فى زمانه حين قال — كما رأيت — : إن الفلاسفة أخذوا من الصوفية كلامهم فى أخلاق النفس ومزجوه بكلامهم » توسلا بالتجميل به إلى ترويج باطلهم » وليتهم كانوا ذاك لخير يفعلون!

والغزالى حين حمل حملته هذه على الفلاسفة — بحق — إنما كان معطيا ما للفلاسفة للفلاسفة ، وما لله لله . فهو — كما سترى — لا يرفض الأخذ بالرأى الصحيح يبدونه، ما دام ذاك الرأى لايخالف الشرع والدين . فإن مبدأه ، أن لايعرف الحق بالرجال؛ بل :

« ينظر فى نفس القول ، فان كان حقاً قبله ، سواء كان قائله مبطلا أومحقاً » .

وذلك هو منطق الرجل العالم ، وخطة من ينشد كالغزالى علما يقينيا .

أما عن هذه الجماعة من المتألهين الذين يمزج الفلاسفة كلامهم بكلامهم ، فهم كانوا فى عصر الغزالى ، بل « فى كل عصر جماعة من المتألهين لايخلى الله تعالى العالم منهم، فانهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض ، كما ورد فى الخبر ، حيث قال صلى الله عليه وسلم : بهم تمطرون ، وبهم

ترزوقون ، ومنهم كان أصحاب الكهف . وكانوا فى سالف الأزمنة كما نطق به القرآن » .

مزج الفلاسفة إذن كلامهم بكلام هؤلاء . فماذا نتج من ذلك ؟ .

« فتولد من مزجهم كلام النبوة ، وكلام الصوفية بكتبهم ، آفتان : آفة فى حق القابل، وآفة فى حق الراد» ثم يأخذ الغزالى فى بيان الآفتين :

« أما آفته فى حق من رده فعظيمة. إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدونا فى كتبهم ممزوجا بباطلهم ، ينبغى أن يهجر ولايذكر ، بل ينكر على كل من يذكره ؛ لأنهم إذ لم يسمعوه أولا إلا منهم ، سبق إلى عقلهم الضعيف أنه باطل لان قائله مبطل » .

وضرب الغزالى لذلك مثلا : النصرانى يسمعه شخص كهذا وهويقول لا إله إلا الله عيسى رسول الله « فينكره ويقول هذا كلام النصارى ، ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصرانى كافر باعتبار هذا القول أو باعتبار إنكاره نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فإن لم يكن كافراً الا باعتبار إنكاره فلا ينبغى أن يخالف

فى غير ماهو كافر به مما هو حق فى نفسه وإن كان أيضاً حقاً عنده » .

ويخلص الغزالى من ذلك بأن تلك هى عادة أصحاب العقول الضعيفة يعرفون الحق بالرجال لا لا بالحق نفسه . ولكن العاقل هو الذى يجعل دستوره ما قاله الإمام على رضى الله عنه : لاتعرف الحق بالرجال . أعرف الحق تعرف أهله .

وهنا يجعل الغزالى صفة العاقل أنه « يعرف الحق ثم ينظر فى نفس القول ، فان كان حقاً قبله سواء كان قائله مبطلا أومحقاً بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل كلام أهل الضلال عالما بأن معدن الذهب الرغام » . فالصير فى لايزجر حين يدخل يده فى كيس القلاب وينتزع الابريز الخالص من الزيف ، وإنما الواجب زجره هو القروى حين يرغب فى ممارسة عمل الصير فى إذ يزاول شيئاً لايحسنه .

وكذلك السباح الحاذق لا يمنع من ساحل البحر ، وإن منع منه الأخرق .

والصبى يصد عن مس الحية ، أما المغزم البارع فلا خوف عليه .

ضرب الغزالى هذه الأمثلة ، وراح يبغى تطبيقها العملى ؛ فرأى أن أكثر الخلق يحسنون الظن بأنفسهم مدعين « الحذاقة والبراعة ، وكمال العقل فى تمييز الحق عن الباطل . والهوى عن الضلال » .

لذلك وضع للعلاج خطة :

« يجب زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال ما أمكن » .

ويقوى رأيه هذا، ما ذكره فى الآفة الثانية ، والتى سنذكرها بعد قليل .

واحتج الغزالى لرأيه كذلك بهذا الاعتراض الذى ساقته اليه « طائفة من الذين لم تستحكم فى العلوم سر سرائرهم ، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم » .

فما الذى ساقته اليه هذه الطائفة التى نعتها بهذه الأوصاف ؟ كان ذلك بصدد بعض كلمات بثهاتصانيفه فى أسرار علوم الدين !

« فزعمت أن تلك الكلمات من كلمات الأوائل » !

وهنا يأخذ الغزالى فى تفنيد ما زعموا ؛ فيقول بأن البعض من تلك الكلمات ، إنما كان من مولدات

الخواطر . وهنا يتساءل : وماذا فى ذلك ! « وهل يبعد أن يقع الحافر على الحافر » ؟ كما أن البعض الآخر « يوجد فى الكتب الشرعية ، وأكثرها موجود معناها فى كتب الصوفية » .

ثم تأخذ الغزالى الحمية فى العلم ، ونزعته فى طلب الحق بمعرفته لا بقائله . فيصيح .

« وهب أنها لم توجد إلا فى كتبهم ، فاذا كان ذلك الكلام معقولا فى نفسه مؤيداً بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلا ينبغى أن يهجر وينكر » .

وتأخذ الإمام حيرة ، فيأخذ فى تصور ما يكون عليه الحال « لو فتحنا هذا الباب وتطرقنا إلى أن يهجر كل حق سبق اليه خاطر مبطل ! » .

لو فعلنا ذلك لأدى بنا الأمر « أن نهجر جملة من آيات القرآن وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية » .

لماذا ؟

« لأن صاحب كتاب إخوان الصفا أوردها فى كتابه مستشهداً بها ، ومستدرجا قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله » .

ولن يقف الأمر وقتئذ عند هذا الحد ، بل « يتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا بايداعهم إياه كتبهم » .

ولكن للعالم المحقق صفات أقلها ما ذكره الغزالى وهو « أن يتميز عن العامى الغمر » .

ويسوق الغزالى لذلك مثلا قد تأثر بالبيئة وأحوال المعيشة السائدة وقتذاك ، فيقول : إن العالم لايعاف العسل « وإن وجده فى محجمه الحجام » مادام يتحقق أن طعمه لن يتغير من وجوده فى المحجمة . أما العامى فيعافه إذ يجده فى المحجمة . فما علة ذلك ؟

يرجع هذا إلى « أن نفرة الطبع مبنية على جهل عامى منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر » .

فترى الجاهل ينفر من ذاك العسل بطبعه إذ « يظن أن الدم مستقذر لكونه فى المحجمة ، ولايدرى أنه مستقذر لصفة فى ذاته ، فإذا عدمت هذه الصفة فى العسل فكونه فى ظرفه لايكسبه تلك الصفة ، فلاينبغى أن توجب له الاستقذار » .

رأى الغزالى أن هذا الوهم الباطل هو الغالب على أكثر الخلق ، فمهما نسبت الكلام وأسندته إلى قائل

حسن فى اعتقادهم ، قبلوه وإن كان باطلا ؛ وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ، ردوه وإن كان حقاً . فبهذا يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال » . تلك آفة الرد ، وقد وفاها الغزالى حقها ؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى :

« الآفة الثانية ، آفة القبول» . وذلك أن من ينظر فى كتب هؤلاء « كإخوان الصفا وغيرهم » يرى كلاما جميلا هو مزج من الحكم النبوية والكلمات الصوفية ، ولكن دس باطلهم خلال ذلك حتى لايعلمه إلا خبير . فترى من ينظر فى ذلك الكلام ، قد أقبل عليه مستحسناً لما يقرؤه ، بل حسن الاعتقاد فيه ، فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج بهذه الحكم النبوية والكلمات الصوفية « بحسن ظن حصل مما رآه ، واستحسنه ، وذلك نوع استدراج إلى الباطل » .

فمن أجل هذا رأى الإمام الغزالى ، حرصاً، على سلامة هذا الصنف من الناس ، أنه « يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الخطر والغرور» .

ومثل ذلك عنده ، أن من لايحسن السباحة يجب صونه عن مزالق الشطوط .ورحم الله أمرأ عرف

قدر نفسه . وأنه « كما يجب صون الصبيان عن مس الحيات ، يجب صون الأسماع عن مختلط تلك الكلمات»

«وكما يجب على المعزم ألايمس الحية بين يدى ولده الطفل إذا علم أنه سيقتدى به ويظن أنه مثله ، بل يجب عليه أن يحذره ويحذر هونفسه بين يديه ، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله » .

وهنا يذكر الغزالى العالم بمثالين يضعهما أمامه :

المثل الأول « المعزم الحاذق إذا أخذا الحية وميز بين الترياق والسم ، فاستخرج منها الترياق وأبطل السم ، فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج اليه» .

والمثل الآخر « الصراف الناقد البصير إذا أدخل يده فى كيس القلاب وأخرج منه الإبريز الخالص واطرح الزيف والبهرج ، فليس له أن يشح بالجيد المرضى على من يحتاج اليه » .

ثم يقول للعالم : هكذا يجب أن نفعل . فكما أن المعزم إذا وجد أن نفس المحتاج إلى ترياقه قداشمأزت منه ، إذ علم أن الترياق مستخرج من الحية التى هى مركز السم ، فواجب المعزم أن يعرفه فائدة الترياق.

وكما أن الصراف ، إذا وجد أن الفقير المضطر

إلى المال ، قد نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب ، فيجب أن ينبهه « على أن نفرته جهل محض هو سبب حرمانه من الفائدة التى هى مطلبه ، وأن قرب الجواز بين الزيف والجيد لا يجعل الجيد زيفاً ، كما لا يجعل الزيف جيداً » .

كذلك رسالة العالم يجب أن تكون ؛ إذ عليه أن يبين كيف أن « قرب الجوار بين الحق والباطل لا يجعل الحق باطلا ، كما لايجعل الباطل حقاً » .

وإن فى هذين المثلين اللذين ساقهما الغزالى من الإشارات وعميق المعانى ما يذكرنا بقوله تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » !

صدق الغزالى ؛ فان الحكمة ضالة المؤمن ، وماكان الحق ليعرف بالرجال . ولكن قليل أولئك الذين يستطيعون اطراح الترب وصون الذهب . فان الفيلسوف شعاره ما قاله الشاعر عن نفسه :

أنا كالمنجم تبر وثرى
فاطرحوا تربى وصونوا ذهبى

ولكن أين ذلك الناقد الخبير ؟ إنهم شرذمة

قليلون ؛ والكثرة لا تدرى أين الترب ، وأين الذهب !

لذلك دعا الغزالى إلى وجوب الزجر عن مطالعة كتب هؤلاء الفلاسفة — بالنسبة لذلك الصنف من الناس — لما فيها من الخطر والغرور .

« فهذا ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها» .

الفصل السابع

ما ذكره الغزالى فى مذهب التعليم وعائلته

فرغ الغزالى من الفلسفة - كما رأيت - تحصيلا وفهماً ، وبعد أن زيّف منها ما رآه قابلا للتزييف ، كان نصيب الفلسفة معه ما قد عرفت.

لقد وجد الغزالى أن الفلسفة لا تفى بكمال الغرض. أليست الفلسفة جل اعتمادها على العقل ؟ والغزالى يرى « أن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات» .

فليوله الله قبلة للعلم أخرى عساه يرضاها ، فولى وجهه شطر مذهب أهل التعليم .

« وكان قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحديهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق » .

فمن هم التعليمية ؟ وما مبادئهم ؟ .

إليك نبذة صغيرة عنهم ، تلقى بصيصاً من ضوء ، ينير السبيل أمام القارئ ، قبل أن يدخل فى موضوعهم مع الغزالى ؛ إذ ربما وجد من لا يعلم شيئاً عن هؤلاء صعوبة فى تفهم مساجلة الغزالى لهم فى منقذه . ونحن نعتمد فيما ننقله لك عن مذهب أهل التعليم، على ما جاء به الغزالى فى كتابه الخالد « المستظهرى » الذى خصصه لبيان هذا المذهب ونقده . وقد أشار الغزالى إلى كتابه هذا فى منقذه ، إذ الناحية التى تناول منها الغزالى التعليمية فى المستظهرى ،غير الناحية التى تناولهم منها فى منقذه كما سترى فى موضعه من ذلك الفصل.

التعليمية : هى تلك الفئة الضالة المضلة التى عم شرها البلاد ، وتسربت تعاليمها إلى كثير من النفوس الضعيفة التى يسهل خداعها بالتعاليم البراقة ، حيث يختفى وراء ذلك البريق الزائف ، الزيغ بكل معناه . ومما زاد فى خطر هؤلاء أنهم يدعون الإسلام فى الظاهر ، أما ماخفى – وماخفى عظيم – فذلك هو الداء الدفين ، الذى لايطلع عليه ، إلا من أخذ العهد عليهم، فلا يطلعونه على شىء إلا بعد أن يأخذ

على نفسه القسم، ألا يبوح بشىء من ذلك السر الذى سيفضى به اليه . وهنا يجد التعليمى نفسه بعد أخذ القسم عليه ، واطلاعه على سرهم بين نارين : إما مصدقا لتعاليمهم فيضل كما ضلوا ، وإما مستنكراً ما يسمعه منهم ، من مخالفة الشرع وأحكامه ، على ما سنبينه لك بإيجاز . وهنا يقع فى حيرة شديدة لا يعرف سبيل الخلاص منها . لقد أخذ على نفسه القسم ألا يبوح بشىء – ولكن ما سمعه الكفر – فان صبر على ما يقولون ، أبى ضميره أن يسكت ، وإن أراد الكلام فثم القسم الذى أخذه على نفسه يقطع عليه كل سبيل . وهنا تصدى الإمام الغزالى فى كتابه الخالد « المستظهرى » فأبان لمثل ذلك الشخص كيف يخرج من ورطته ، ويتحلل من قسمه، وذلك موضوع يطول شرحه إن أردنا بيانه لك هنا؛ ولكن حسبنا أن نشير إلى عيون ما أتى به ذلك الإمام الجليل! أحسب القارئ متشوقاً بعد هذا لمعرفة ما يدين به هؤلاء .

زعم التعليمية أنه لابد أن يوجد فى كل زمان إمام معصوم يرجع اليه فى كل ما يتعلق بأمور الدين،

فيكون لديه لكل مشكلة فيه حل ، والصواب ما يفتى به ، فإنه مطلع من جهة الخالق على جميع ما فى الشرائع من أسرار ، فهو يهــدى للتى هى أقوم! لذلك اتفقت كلمتهم على إبطال الرأى ، ودعوا إلى التعلم من الإمام المعصوم ، ومن هذا سموا بالتعليمية.

أما عن ذلك الإمام المعصوم فهو فى زعمهم يجب أن يكون شخصاً من عترة رسول الله ، وهو على رضى الله عنه ، ومن بعده تكون الإمامة فى أعقابه ولداً فولداً . ولما كان هذا الأمر لا يمكن أن يوجد إلا مستنداً إلى نص متواتر ، فقد سول لهم شيطانهم ، وأملى لهم كفرهم بأن يتقولوا ذلك النص على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الإمامة بعدى لعلى ، وبعده لأولاده !

وهكذا يبدأ التعليمية دعوتهم بذلك الحديث يفترونه على رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم ويتقولونه عليه ؛ ثم تجىء بعد ذلك هذه العصمة التامة التى يدعونها لإمامهم ؛ إذ يقولون إن الله قد أطلعه على الغيب وأسرار الشرائع ! ودعوى العصمة هذه مردودة عليهم ــ شأن بقية دعاويهم ــ لا يستطيعون إثباتها ولو كان بعضهم لبعض

ظهيراً . ولا بأس أن ننقل لك هنا شيئاً من رد الإمام الغزالى عليهم فى هذه النقطة سألهم الإمام: «(١) وبماذا عرفتم صحة كونه معصوماً ــ أى إمامهم ــ ووجود عصمته ؟ أبضرورة العقل ، أو بنظره ، أو بسماع خبر خبر متواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يورث العلم الضرورى؟» .

ثم يأخذ الغزالى بخناق التعليمية من هذه النقاط الثلاث التى أوردها فيقول :

«(٢) ولا سبيل إلى دعوى الضرورة ، ولا إلى دعوى الخبر المتواتر المفيد العلم الضرورى ، لأن كافة الخلق تشترك فى دركه ؛ وكيف يدعى ذلك وأصــل وجود الإمام لا يعرف ضرورة بل نازع منازعون فيه ، فكيف يعلم عصمته ضرورة ؟ ! وإن ادعيتم ذلك بنظر العقل ، فنظر العقل عندكم باطل ، وإن سمعتم من قول إمامكم إن العصمة واجبة للإمام ، فلم صدقتموه قبل معرفة عصمته بدليل آخر؟ وكيف

(١) المستظهرى ص ٣٩ طبعــة جولد زيهر المقابلة بالنســخة الألمانية ، وتوجد بمكتبة الأزهر الشريف .

(٢) المستظهرى ص ٣٩ .

يجوز أن يعرف إمامته وعصمته بمجرد قوله ؟ ! »

هذا عن المذهب فى جملته ، عرفناه لك بايجاز ما أمكن . أما تفصيله فيتعلق بأطراف أربعة : الالهيات والنبوات ، والإمامة ، والحشر والنشر .

أما عن الإلهيات فالتعليمية كالمجوس ، يقولون بالإلهيين مع استبدالهم بالنور والظلمة ، السابق والتالى ، ويضمون إلى ذلك مبتدعات من كلام الفلاسفة ، وضلالهم .

وأما عن معتقدهم فى النبوات ، فالمنقول عنهم كما يقول الغزالى فى مستظهره « قريب من مذهب الفلاسفة . وهو أن النبى عبارة عن شخص فاض عليه من السابق بواسطة التالى قوة قدسية خافية مهيأة لأن تنتعش عن الاتصال بالنفس الكلية بما فيها من الجزئيات ، كما قد يتفق ذلك لبعض النفوس الذكية فى المنام حتى تشاهد من مجارى الأحوال فى المستقبل ، إما صريحاً بعينه ، أو مدرجاً تحت مثال يناسبه مناسبة ما فيفتقر فيه إلى التعبير ، إلا أن هذا النبى هو المستعد لذلك فى اليقظة ، فلذلك يدرك النبى الكليات العقلية عند شروق ذلك النور وصفاء القوة النبوية ، كما

ينطبع مثال المحسوسات فى القوة الباصرة من العين عند شروق نور الشموس على سطوح الأجسام الصقلية » ! ولهم فى جبريل والقرآن أقوال سيسألون عنها يوم تشهد عليهم جلودهم وتنطق ألسنتهم بما كانوا يفترون على الله بغير علم !

أما عن الإمامة فقد عرفت شيئاً مما يقولونه فيها فيما رويناه لك .

أما عن الحشر والنشر فلهم كلام فى ذلك طويل ، يحاكى ما يقوله الفلاسفة فى كثير ؛ فهم أهل إباحة مطلقة يرفعون الحجاب ويستبيحون المحظورات ، ويستحلون ماحرم الله ، وينكرون ما أتت به من الشرائع الأنبياء !

لكنهم ينكرون ذلك بأجمعهم إذا نسب اليهم . فهم يدينون بالإسلام فى الظاهر كما عرفت ، وهم تحت ذلك الستار يستدرجون الناس من حيث لايعلمون ، وطريقتهم فى ذلك كما يقول الغزالى «[1] أن يخادعوا كل ضعيف بطريق يعجبه ويليق به » .

---

(١) المستظهرى .

وسنذكر لك بإيجاز شديد طريقتهم فى رمى شباكهم واستدراج الضحية اليهم . لهم فى ذلك حيل ثلاث : حيلة التأنيس ، وحيلة التعليق ، وحيلة التدليس

أما عن حيلة التأنيس ، فهى وصولهم إلى لب الشخص بما يستهويه وما يتفق وهواه ، حتى تميل نفس الضحية إلى داعيتهم وتأنس اليه . من ذلك أن يذهب داعيهم ليبيت عند واحد من المستجيبين ، فإن كان الداعية حسن الصوت أخذ يرتل آيات الله بصوت جميل ، وإلا استصحب من كان له صوت حسن لذلك الغرض ؛ ويلبث على ذلك الحال عدة ليال « ثم يتبع ذلك بشيء من الكلام الرقيق وأطراف من المواعظ اللطيفة الآخذة بمجامع القلوب ، ثم يردف ذلك بالطعن فى السلاطين وعلماء الزمان وجهال الأمة . ويذكرون أن الفرج منتظر من كل ذلك ببركة أهل بيت رسول صلى الله عليه وسلم . وهو فيما بين ذلك يبكى أحياناً ويتنفس الصعداء ، وإذ ذكر آية أوخبراً ذكر أن لله سراً فى كلماته لا يطلع عليه إلا من اجتباه الله من خلقه وميزه بمزيد لطفه .فإن قدر أن يتهجد بالليل مصليا وباكياً عند غيبة صاحب

البيت ، بحيث يطلع عليه صاحب البيت ، ثم إذا أحس بأنه اطلع عليه عاد إلى مبيته واضطجع كالذى يقصد إخفاء عبادته ، وكل ذلك ليستحكم الأنس به ويميل القلب إلى كلامه ، فهذه هى مرتبة التأنيس » .

بعد ذلك تأتى المرحلة الثانية ، مرحلة التعليق ؛ فها هو قلب المستجيب قد أصبح متهيئاً لأن يتقبل من الداعية الكثير ، بعد أن أنس اليه واطمأن له ، فليغتنمها الداعية فرصة .فبعد أن يكون قد أثار فى ضحيته هذه الشكوك يتركه معلقاً .ولم العجلة ؟أليس هذا الدين أجل من أن يعبث به؟ أويكشف لغير أهله سره ؟ ماكان للدين أن يوضع فى غير موضعه . وعلى ذلك ماكان للمستجيب أن يطمع فى أن يكشف له داعية التعليمية ما يعلمه من سر بهذه السهولة . وهكذا يبقى الصائد مع ضحيته يراوغها ويدافعها ، ويهول للمستجيب من أمر ذلك السر الذى يضن به على غير أهله . فان رأى الداعية بعد ذلك إعراضاً من المستجيب واستهانة بهذه الشكوك ، انصرف عنه ونفض يديه منه . أما إن رأى التعطش منه لـــدرك هذه الأسرار ، أمره بأن يقوم لذلك بالصوم ،

والصلاة والتوبة والتبتل إلى الله تبتيلا ؛ لأن أمثال
هذه الأسرار المضنون بها على غير أهلها ، لاتودع
إلا فى الأستار المحصنة ! ثم يخير الداعية ضحيته
بعد ذلك بين الحلف وعدمه ، قبل الإفضاء اليه
بالسر ؛ فان أبى الحلف تركه وخلى عنه ، وإن
رضى به ، أخذ عليه القسم بالكتمان ، وهو بالخيرة
بعده ، فان وفق لدرك حقيقة السر فانه لاشك
سيسعد سعادة عظمى ! وإن اشمأزت نفسه فليس
من بأس ، فان كلا ميسر لما خلق له . وهو لم يتيسر
لاحتمال أسرار أمثال هذه العظائم ، ولكن يقدر
كأنه لم يسمع شيئاً — أرأيت هذه الحيطة ؟ — وكيف
يستطيع البوح بشيء قد أعطى على كتمانه أغلظ
الإيمان ؟ ما كان له أن ينقض الإيمان بعد توكيدها ! ثم
ما يعوقه عن الإفشاء ويرده دونه إن أراد ؟ إنه القسم .
فليصبر إذاً على ما قالوا ، وليضق صدره ، وإن كان
صبره على مضض !

ثم تأتى المرحلة الثالثة ، وقوامها حيلة ؛ أية حيلة !
التدليس ! .

وذلك أنه بعد أن يقسم اليمين ويؤكد العهد ،

لايسمح له بأن يكاشف بالأسرار دفعةواحدة ، بل
على دفعات ؛ أى يأخذ السر على جرعات ! فيبدأ
معه بذكر قاعدة المذهب ويقول له الداعية :

« (١) مثار الجهل تحكيم الناس على عقولهم الناقصة ؛
وآرائهم المتناقضة ، وإعراضهم عن الاتباع والتلقى
من أصفياء الله وأئمته وأوتاد أرضه ، والذين هم
خلفاء رسوله من بعده ، فهم الذين أودعهم الله سره
المكنون ودينه المخزون ، وكشف لهم بواطن هذه
الظواهر ، وأسرار هذه الأمثلة ، وأن الرشدوالنجاة
من الضلال بالرجوع إلى القرآن وأهل البيت (١)
ولذلك قال عليه السلام لما قيل له : ومن أين يعرف
الحق بعدك ؟ فقال : ألم أترك فيكم القرآن وعترتى ؟
وأراد به أعقابه ، فهم الذين يطلعون على معانى القرآن»
يلقن المستجيب ذلك ابتداء ولاشيء أكثر . أما مايقوله
الامام ؛ فلا يفصح له عن شيء ومنه !

ثم يتمشون معه بعد ذلك ويحاولون حمله على
أن يأخذ بباطن القرآن لا بظاهره ، فإن قصار العقول

---

(١) المستظهرى .
(٢) تأمل هذا الاستدراج . المؤلف .

هم الذين يأخذون بظواهر القرآن ، أما هو وأمثاله من أهل الذكر – التعليمية طبعاً – فانهم أرقى من ذلك . إنهم يأخذون بالبواطن . ولكن كيف ؟عليهم أن يعطلوا مدا ركهم العاجزة ، ولغة عقولهم القاصرة ، ليأخذوا علمهم عن المدارك الغير المحصورة والعقل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ إمامهم المعصوم ! فعليهم إذن التعلم من ذلك المعصوم واتّباعه ! وهم بسبيل إدخال هذه العقيدة الفاسدة بتلك الحيلة الخبيثة ، يلجأون إلى طرق شيطانية ، لايتسع المقام هنا لذكرها تفصيلا. وفى المستظهرى للغزالى ، غناء لمن أراد مزيداً .

فهو مذهب ظاهره ، كما يقول الغزالى بحق فى مستظهره « الرفض وباطنه الكفر المحض ، ومفتاحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق » .

ولنسق لك أمثلة من تأويلات هؤلاء الباطنية حتى تعرف مدى فجورهم وضلالهم :

« (١) قالوا كل ما ورد من الظواهر فى التكاليف

(١) المستظهرى .

والحشر والنشر والأمور الإلهية فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن . أما الشرعيات فمعنى الجنابة مبادرة المستجيب بافشاء سر اليه قبل أن ينال رتبة استحقاقه. ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك . والمجامعة معناها مفاتحة من لاعهد عليه ولم يؤد شيئاً من صدقة النجوى وهى مائة وتسعة عشر درهما عندهم ؛ فلذلك أوجب الشرع القتل على الفاعل والمفعول به ؛ وإلا فالبهيمة متى يجب القتل عليها ؟ والزنا هو إلقاء نطفة العلم الباطن فى نفس من لم يسبق معه عقد العهد . الاحتلام هو أن يسبق لسانه إلى إفشاء السر فى غير محله . فعليه الغسل أى تجديد المعاهدة ! الطهور هو التبرى والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى مبايعة الإمام . الصيام هو الإمساك عن كشف السر . الكعبة هو النبى والباب على . الصفا هو النبى والمروة على . التلبية إجابة الداعى والطواف بالبيت سبعاً هو الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة . والصلوات الخمس أدلة على الأصول الأربعة وعلى الإمام . فالفجر دليل السابق . والظهر دليل التالى . والعصر للأساس . والمغرب دليل الناطق . والعشاء دليل الإمام.

وكذلك زعموا أن المحرمات عبارة عن ذوى السر من الرجال وقد تعبدنا باحسانهم . كما أن العبادات عبارة عن الأخيار الأبرار . فأما الميعاد فزعم بعضهم أن النار عبارة عن الانحلال . والأوامر التى هى التكاليف فانها موظفة على الجهال بعلمهم الباطن ، فمادامو ا مستمرين عليها فهم معذبون . فاذا نالوا علم الباطن وضعت عنهم أغلال التكاليف وسعدوا بالخلاص منها ، وأخذوا يؤولون كل لفظ ورد فى القرآن والسنة ؛ فقالوا أنهار من لبن أى معادن العلم . اللبن العلم الباطن يرتضع بها أهلها وتغذى بها تغذيا تدوم بها حياته اللطيفة . فإن غذاء الروح اللطيفة بارتضاع العلم من المعلم ، كما أن حياة الجسم الكثيف بارتضاع اللبن من ثدى الأم . وأنهار من خمر هو العلم الظاهر. وأنهار من عسل مصفى هو علم الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة . وأما المعجزات فقد أوّلوا جميعها وقالوا الطوفان معناه طوفان العلم أغرق به المتمسكون بالسنة ، والسفينة حرزه الذى تحصن به من استجاب لدعوته . ونار إبراهيم عبارة عن غضب نمرود لا عن النار الحقيقية . وذبح اسحاق معناه أخذ العهد عليه.

عصا موسى حجته التى تلقفت ما كانوا يأفكون من الشبه لا الخشب . انفلاق البحر افتراق علم موسى فيهم على أقسام . والبحر هو العالم . والغمام الذى أظلهم معناه الإمام الذى نصبه موسى لإرشادهم ، وإفاضة العلم عليهم . الجراد والقمل والضفادع هى سؤالات موسى، وإلزاماته التى سلطت عليهم .والمن والسلوى علم نزل من السماء لداع من الدعاة هو المراد بالسلوى . تسبيح الجبال معناه تسبيح رجال شداد فى الدين راسخين فى اليقين . الجن الذى كان مع سليمان باطنية ذلك الزمان . والشياطين هم الظاهرية الذين كلفوا بالأعمال الشاقة . عيسى له أب من حيث الظاهر ، وإنما أراد بالأب الإمام إذ لم يكن له إمام بل استفاد العلم من الله بغير واسطة . وزعموا — لعنهم الله — أن أباه يوسف النجار . كلامه فى المهد اطلاعه فى مهد القلب قبل التخلص منه على ما يطلع عليه غيره بعد الوفاة والخلاص من القلب . إحياء الموتى من عيسى معناه الإحياء بحياة العلم عن موت الجهل بالباطن . وإبراؤه من عمى الضلال ، وبرص الكفر ببصيرة الحق المبين .إبليس وآدم عبارة عن

أبى بكر وعلى إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلى والطاعة له فأبى واستكبر . الدجال زعموا أنه أبو بكر وكان أعور إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن . ويأجوج ومأجوج هم أهل الظاهر .

هذا من هذيانهم فى التأويلات حكيناها ليضحك منها ، ونعوذ بالله من صرعة العاقل ، وكبوة الجاهل ! »

وهكذا يتضح ما فى مذهب الباطنية – قبحهم الله – من ضلال وكفر وزيغ . وما هذه التأويلات السمجة الغريبة التى لجأ اليها هؤلاء الزنادقة – وقد أحطت بنتف منها فيما نقلناه لك عن المستظهرى – إلا حيل لجأوا اليها ليبطلوا معانى الشرع ، فزخرفوا تأويلاتهم ومبتدعاتهم – كما رأيت – وغرضهم من ذلك صرف الخلق عن القرآن والسنة والمراد بهما ، إذ عجزوا عن ذلك ، إلى هاته المخاريق المزخرفة ، والتأويلات الغريبة التى ينبو عنها كل طبع سليم ، وكل فطرة صافية ، فطرة الله التى فطر الناس عليها من التصديق به وبأنبيائه ورسله وكتبه وملائكته ، فإن غريزة التصديق بهذا كله ، إنما توجد فى كل قلب سليم ؛ فالله سبحانه يقول « ولكن الله حبب إليكم

الإيمان وزينه فى قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون » .

أما من عرفت من شياطين التعليمية ، فأولئك هم الكاذبون الكافرون ، عليهم اللعنة ولهم سوء الدار؟

أحسب القارئ قد كون الآن فكرة عن التعليمية صحيحة ، تجعله مستطيعاً أن يتمشى مع الغزالى فى حديثه عنهم فى منقذه من الضلال .

فقد عنّ للغزالى أن يبحث فى مقالاتهم ويطلع على ما فى كنانتهم . وهنا يصادف أن يأتيه « أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم » . فيصبح الغزالى بين عاملين كلاهما قوى يدفعانه إلى إتمام هذه الدراسة : عامل داخلى هو رغبته الشخصية فى دراسة ذلك المذهب سعياً وراء الحقيقة ، وعامل خارجى هو إطاعة ولى الأمر . ويستشهد الغزالى لذلك بقوله تعالى « أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم » . وعلى ذلك أخذ الغزالى يطلب كتب التعليمية ، ويجمع مقالاتهم ، وكان قد بلغه « بعض كلماتهم المستحدثة التى ولدتها خواطر أهل العصر ، لا على المنهاج

المعهود من سلفهم» . فاخذ يجمع تلك الكلمات ويرتبها بإحكام مع التدقيق والتحقيق حتى استوفى الجواب عنها .

وهنا أخذ بعض أهل الحق ينكرون منه هذه المبالغة فى تقرير حجة التعليمية .

«وقالوا هذا سعى لهم فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم لمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها وترتيبك إياها » .

والغزالى وإن كان يرى أن هذا الانكار صائب بداءة ، بيد أن له فيما قد فعل عذراً . نعم يعرف كيف «أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى تصنيفه فى الرد على المعتزلة ؛ فقال الحارث : الرد على البدعة فرض ؛ فقال أحمد : نعم ! ولكن حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها ، فبم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر اليه ولا يفهم كنهه ؟» .

ولكن ما ذكره ابن حنبل لا ينطبق على ما ذكره الغزالى . فهو صحيح فى الشبهة التى لم تنشر

ولم تشتهر «أما إذا اشتهرت فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب إلا بعد الحكاية » .

والغزالى يعرف أنه لا ينبغى أن يتكلف لهم شبهة لم تتكلف ، وهو لم يتكلفها . كل ما فى الأمر أنه سمع تلك الشبهة من أحد أصحابه الذين يختلفون اليه ، وكان صاحبه هذا قد التحق بالتعليمية وانتحل مذهبهم « فحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين فى الرد عليهم لأنهم لم يفهموا بعد حجتهم ، ثم ذكر حجتهم وحكاها عنهم » .

فلم يرض الغزالى أن يظن به الغفلة عن أصل حجتهم ، فلهذا السبب أوردها ؛ ولا أن يظن به أنه قد سمعها ولكن لم يفهمها . فلهذا قررها . ومقصوده ما قاله « قررت شبهتهم إلى أقصى الامكان ثم أظهرت فسادها » .

لقد كون الغزالى فى هذا المذهب وأهله رأياً ، خلص له بعد الدراسة .

« والحاصل أنه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم» . وإن الغزالى ليرجع ما انتهت اليه هذه

البدعة ، وبلوغها هذه الدرجة من الانتشار ، مع ضعفها ، إلى «سوء نصرة الصديق الجاهل» .

كيف ؟

ذلك أن «شدة التعصب دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم فى مقدمات كلامهم ، وإلى مجادلتهم فى كل ما نطقوا به ، فجادلوهم فى دعواهم الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم ، ودعواهم أنه لا يصلح كل معلم بل لا بد من معلم معصوم» .

ثم يعترف الغزالى بأن التعليمية «ظهرت حجتهم فى إظهار الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم» .

فماذا نتج عن هذا ؟

«اغتر بذلك جماعة وظنوا أن ذاك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالف له» .

ولكن أتدرى الحقيقة التى غابت عن هؤلاء ؟

«هى أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه» .

فلو أحسن من يعارض التعليمية مناهضتهم ، ومقارعتهم ، لما كان للتعليمية الغلبة بحال ، وهل كان الباطل إلا زبداً يذهب بعد حين جفاء ؟ فليأخذ الغزالى الحسام إذن ، من يد لم تحسن به دفاعاً ،

وليصُل هو صولته ؛ رب الحسام أدرى أين تكون جولته . فانظر كيف أفتى الغزالى فى مسألة المعلم المعصوم !

«بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى معلم ، وأنه لا بد وأن يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم» !

فالغزالى يتمشى مع التعليمية فى فكرة الحاجة إلى معلم ، وإلى أن يكون هذا المعلم معصوماً ، على أن يكون « معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم» .

وهنا يأخذ فى حوارهم ومساجلتهم (١) .

- «قالوا هو ميت »

«نقول ومعلمكم غائب» .

- «معلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل..؟

---

(١) هذه المساجلة بين الغزالى والتعليمية حتى نهايتها قد تصرفنا فى جمعها وجعلها على هذا النحو ، ولكن حرصنا - كما ترى - أن يكون الكلام منقولا بنصه من المنقذ فهو كما ترى قد جاء بين قوسين دلالة على النقل .

« ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم وأكمل التعليم ، إذ قال الله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم » وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم ، كما لا يضر غيبته » .

– « كيف تحكمون فيما لم تسمعوه ، أفبالنص ولم تسمعوه أم بالاجتهاد بالرأى وهو مظنة الخلاف ؟ » .

«نفعل ما فعله معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ؛ إذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عدمه ؛ بل كما يفعله دعاتكم اذا بعدوا عن الامام إلى أقاصى الشرق إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص ، فان النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير متناهية ، ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الامام ؛ وإلى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستفتى قد مات وفات الانتفاع بالرجوع . فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلى باجتهاده ؛ إذ لو سافر إلى بلدة الامام ليعرفه القبلة لفات وقت الصلاة ، فاذا جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن ويقال إن المخطىء فى الاجتهاد له أجر واحد

وللمصيب أجران ، فكذلك فى جميع المجتهدات وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير . فربما يظنه فقيراً باجتهاده وهو غنى باطناً . باخفائه ماله . ولا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ . لأنه لم يؤاخذ إلا بموجب ظنه » .

– « ولكن ظن مخالفه كظنه ! » .

« هو مأمور باتباع ظن نفسه كالمجتهد فى القبلة يتبع ظن نفسه وإن خالف غيره »

وهكذا يلزمهم الغزالى الحجة ، ثم يعلن أن « رد الخلق إلى الاجتهاد ضرورة الأنبياء والأئمة مع العلم بأنهم قد يخطئون » . ويحتج لذلك بالحديث المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر . أى أن الرسول عليه السلام يحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ومن ثم يتساءل الغزالى ، اذا اتضح أنه « لا سبيل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء مثل هذه المجتهدات ، فكيف يطمع فى ذلك ؟ » .

أيوجد عند التعليمية رد لذلك فى إمامهم المعصوم ؟ وهكذا ترى الغزالى قد نفى ببراعته فكرة الامام

المعصوم التى يقول بها التعليمية ، إلا فى النبى المعصوم بإذن الله وأمره ، إمام المسلمين ، محمد صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن التعليمية لا يكتفون بذلك القدر فى إقناعهم ويرون أن ما ذكره الغزالى وإن صح فى المجتهدات « فلا يصح فى قواعد العقائد إذ المخطىء فيها غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟ »

فيأخذ الغزالى فى جلاء هذه النقطة لهم :

«إن قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء ذلك من التفصيل والمتنازع فيه ، يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم ، وهى الموازين التى ذكرها الله تعالى فى كتابه » .

وقد ذكر الغزالى هذه الموازين الخمسة فى كتابه «القسطاس المستقيم» ونحن ننقل لك ما ذكره فيها فى كتابه هذا إتماماً للفائدة .

قال « .... فأكشف (١) لك عن الموازين الخمسة

(١) القسطاس المستقيم للامام الغزالى ص ١٢ .

المنزلة فى القرآن ، لتستغنى به عن كل إمام ، وتجاوز حد العميان ، فيكون إمامك المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقائدك القرآن ، ومعيارك المشاهدة والعيان . فاعلم أن موازين القرآن فى الأصل ثلاثة : ميزان التعادل ، وميزان التلازم ، وميزان التعاند . لكن ميزان التعادل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : إلى الأكبر ، والأوسط ، والأصغر ، فيصير الجميع خمسة » .

ثم يأخذ بعد ذلك فى الكلام على كل ميزان من هذه الموازين الخمسة ، فليرجع اليها من شاء فى كتابه هذا « القسطاس المستقيم » فهو عظيم الفائدة .

وهنا يتوقع الغزالى اعتراضاً آخر من التعليمية بشأن الميزان الذى احتج به عليهم .

— « إن خصومك يخالفونك فى ذلك الميزان » .

وهنا يبادر بدفع ذلك الاعتراض فيقول :

« لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه ، إذ لا يخالف فيه أهل التعليم ، لأنى استخرجته من القرآن وتعلمته منه ؛ ولا يخالف فيه أهل المنطق لأنه موافق لما شرطوه فى المنطق غير مخالف له ؛

ولا يخالف فيه المتكلم لأنه موافق لما يذكره فى أدلة النظريات ، وبه يعرف الحق فى الكلاميات » .

ولكن مناظره من التعليمية ما كان ليسكت . قال له وهو يحاوره :

– «فان كان فى يدك مثل هذا الميزان ، فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق ؟» .

فيقول له :

«لو أصغوا إلى لرفعت الخلاف بينهم » .

وهنا يحيل الغزالى مجادله إلى ما ذكره فى رفع الخلاف فى كتابه « القسطاس المستقيم » ويدعوه لتأمله ليعلم أنه حق ، وأنه يرفع الخلاف قطعاً ، ولكن عند من يحسن له إنصاتاً وسمعاً ؛ أى لدى أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . ولكن ما أصغى اليه إلا قليل ؛ وهؤلاء يقول فيهم الغزالى «فرفعت الخلاف بينهم» .

والحق أن الغزالى قد عقد فصلا طويلا فى كتابه القيم « القسطاس المستقيم » ذكر فيه طرق نجاة الخلق من ظلمات الاختلافات . ونحن ننقله لك – على طوله – إتماماً للفائدة ، وحتى يكون القارىء

متمشياً مع مساجلة الغزالى للتعليمية فى مراجعها المختلفة ما أمكن .

(١) فقال كيف نجاة الخلق من هذه الاختلافات ؟ فقلت : إن أصغوا إلى رفعت الاختلافات بينهم ، بكتاب الله تعالى . ولكن لا حيلة فى إصغائهم لم يصغوا بأجمعهم إلى الأنبياء ولا إلى إمامك ، فكيف يصغون إلى ؟ وكيف يجتمعون على الاصغاء وقد حكم عليهم فى الأزل بأنهم لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ؛ ولذلك خلقهم ؟ وكون الخلاف بينهم ضرورياً تعرفه من كتاب جواب مفصل الخلاف وهو الفصول الاثنا عشر . فقال : فلو أصغوا كيف كنت تفعل ؟ قلت : كنت أعاملهم بآية واحدة من كتاب الله تعالى إذ قال « وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد» الآية . وإنما أنزل هذه الثلاث لأن الناس ثلاثة أصناف وكل واحد من الكتاب والحديد والميزان علاج قوم . فقال : فمن هم وكيف علاجهم ؟ قلت : الناس ثلاثة أصناف : عوام وهم أهل السلامة ، والبله وهم أهل

(١) القسطاس المستقيم للغزالى .

الجنة ، وخواص وهم أهل الذكاء والبصيرة .
ويتولد بينهم طائفة هم أهل الجدل والشغب فيتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة . أما الخواص فانى أعالجهم بأن أعلمهم الموازين القسط وكيفية الوزن بها ، فيرتفع الخلاف بينهم على قرب . وهؤلاء قوم اجتمع فيهم ثلاث خصال (إحداها) القريحة النافذة والفطنة القوية ، وهذه عطية فطرية وغريزة جبلية لا يمكن كسبها . (والثانية) خلو باطنهم من تقليد وتعصب لمذهب موروث ومسموع ، فان المقلد لا يصغى ، والبليد وإن أصغى فلا يفهم . (والثالثة) أن يعتقد فى أنى من أهل البصيرة بالميزان ، ومن لم يؤمن بأنك تعرف الحساب لا يمكنه أن يتعلم منك .

(والصنف الثانى البله) وهم جميع العوام ، وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق ، وإن كانت لهم فطنة فطرية فليس لهم داعية الطلب ، بل شغلتهم الصناعات والحرف ، وليس فيهم أيضاً داعية الجدل بخلاف المتكايسين فى العلم مع قصور الفهم عنه ، فهؤلاء لا يختلفون ولكن

يتخيرون بين الأئمة المختلفين ؛ فأدعو هؤلاء إلى الله بالموعظة كما أدعو أهل البصيرة بالحكمة ، وأدعو أهل الشغب بالمجادلة . وقد جمع الله سبحانه وتعالى هذه الثلاثة فى آية واحدة كما تلوته عليك أولا ، فأقول لهم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأعرابى جاءه فقال : علمنى من غرائب العلم . فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ليس أهلا لذلك . فقال : وماذا عملت فى رأس العلم ، أى الايمان والتقوى والاستعداد للآخرة ؟ اذهب فأحكم رأس العلم ثم ارجع لأعلمك من غرائبه فأقول للعامى : ليس الخوض فى الاختلافات من عشك ؛ فأدرك ، فاياك أن تخوض فيه أو تصغى اليه فتهلك . فانك إذا صرفت عمرك فى صناعة الصياغة لم تكن من أهل العلم ومن أهل الخوض فيه ؛ فاياك ثم إياك أن تهلك نفسك ، فكل كبيرة تجرى على العامى أهون من أن يخوض فى العلم فيكفر من حيث لا يدرى . فان قال : لا بد من دين أعتقده وأعمل به لأصل به إلى المغفرة ، والناس مختلفون فى الأديان فبأى دين تأمرنى أن آخذ أو

أعول عليه ؟ فأقول له : للدين أصول وفروع والاختلاف إنما يقع فيها ، أما الأصول فليس عليك أن تعتقد فيها إلا ما فى القرآن ، فان الله تعالى لم يستر عن عباده صفاته وأسماءه ، فعليك أن تعتقد أن لا إله إلا الله ، وأن الله حى عالم قادر سميع بصير جبار متكبر قدوس ليس كمثله شيء ، إلى جميع ما ورد فى القرآن واتفق عليه الأئمة ؛ فذلك كاف فى صحة الدين ؛ وإن تشابه عليك شيء فقل آمنا كل من عند ربنا . واعتقد كل ما ورد فى إثبات الصفات ونفيها على غاية التعظيم والتقديس مع نفى المماثلة ، واعتقاد أنه ليس كمثله شيء ؛ وبعد هذا لا تلتفت إلى القيل والقال فانك غير مأمور به ولا هو على حد طاقتك . فان أخذ يتحذلق ويقول قد علمت أنه عالم من القرآن ولكنى لا أعلم أنه عالم بالذات أو بعلم زائد عليه وقد اختلف فيه الأشعرية والمعتزلة ، فقد خرج بهذا عن حد العوام ؛ إذ العامى لا يلتفت قلبه إلى مثل هذا ما لم يحركه شيطان الجدل ، فإن الله لا يهلك قوماً إلا يؤتيهم الجدل ، كذلك ورد الخبر . واذا التحق بأهل

الجدل فسأذكر علاجهم . هذا ما أعظ به فى الأصول وهو الحوالة على كتاب الله . فان الله أنزل الكتاب والميزان والحديد وهؤلاء أهل الحوالة على الكتاب . وأما الفروع ، فأقول لا تشغل قلبك بمواقع الخلاف ما لم تفرغ من جميع المتفق عليه . فقد اتفقت الأمة على أن زاد الآخرة هو التقوى والورع ، وأن الكسب الحرام والمال الحرام والغيبة والنميمة والزنا والسرقة والخيانة وغير ذلك من المحظورات حرام . والفرائض كلها واجبة ، فان فرغت من جميعها علمتك طريق الخلاص من الخلاف . فان هو طالبنى بها قبل الفراغ من هذا كله فهو جدلى وليس بعامى ، ومتى تفرغ العامى من هذا إلى مواضع الخلاف . أفرأيت رفقاءك قد فرغوا من جميع هذا ثم أخذ إشكال الخلاف بمخنقهم ؟ هيهات ! ما أشبه ضعف عقولهم فى خلافهم إلا بعقل مريض أشرف على الموت ، له علاج متفق عليه بين الأطباء وهو يقول : قد اختلف الأطباء فى بعض الأدوية أنها حارة أو باردة ، وربما افتقرت اليه يوماً فأنا لا أعالج نفسى حتى أجد من يعلمنى رفع الخلاف

فيه . نعم لو رأيتم صالحا قد فرغ من حدود التقوى كلها وقال : ها أنا تشكل على مسائل فإنى لا أدرى أأتوضأ من اللمس والقىء والرعاف وأنوى الصوم بالليل فى رمضان أو بالنهار إلى غير ذلك ، فأقول له : إن كنت تطلب الأمان فى طريق الآخرة فاسلك سبيل الاحتياط وخذ بما يتفق عليه الجمع فتوضأ من كل ما فيه خلاف فإن كل من لا يوجبه يستحبه . وانو الصوم بالليل فى رمضان فإن من لا يوجبه يستحبه . فإن قال هو ذا يثقل على الاحتياط ويعرض لى مسائل تدور بين النفى والاثبات ، وقال لا أدرى أأقنت فى الصبح أم لا وأجهر بالتسمية أم لا ؟ فأقول له : الآن اجتهد مع نفسك وانظر إلى الأئمة أيهم أفضل عندك وصوابه أغلب على قلبك ، كما لو كنت مريضاً وفى البلد أطباء فإنك تختار بعض الأطباء باجتهادك لا بهواك وطبعك ، فيكفيك مثل ذلك الاجتهاد فى أمر دينك ، فمن غلب على ظنك أنه الأفضل فاتبعه ، فإن أصاب فيما قال عند الله فله فى ذلك أجران ، وإن أخطأ فله فى ذلك عند الله أجر واحد ، وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، إذ قال : من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد . ورد الله تعالى الأمر إلى أهل الاجتهاد وقال تعالى لتعليمه : الذين يستنبطونه منهم . وارتضى الاجتهاد لأهله إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : بم تحكم ؟ قال بكتاب الله . قال فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم تجد ؟ قال أجتهد رأيي . قال ذلك قبل أن أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذن له فيه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله . ففهم من ذلك أنه مرضى به من رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وغيره . كما قال الاعرابى : إنى هلكت وأهلكت ! واقعت أهلى فى نهار رمضان . فقال : أعتق رقبة . ففهم أن التركى أو الهندى لو جامع أيضاً لزمه الاعتاق . وهذا لأن الخلق ما كلفوا الصواب عند الله فإن ذلك غير مقدور عليه ولا تكليف بما لا يطاق بل كلفوا ما يظنونه صواباً . كما لم يكلفوا بالصلاة بثوب طاهر بل بثوب يظنون أنه طاهر ، فلو

تذكروا نجاسته لم يلزمهم القضاء ، إذ نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم نعله فى أثناء الصلاة لما أنبأه جبريل أن عليه قذراً ولم يعد الصلاة ولم يستأنف . وكذلك لم يكلف أن يصلى إلى القبلة بل إلى جهة يظن أنها القبلة بالاستدلال بالجبال والكواكب والشمس ، فان أصاب فله أجران وإلا فله أجر واحد . ولم يكلفوا أداء الزكاة إلى الفقير بل إلى من ظنوا فقره ؛ لأن ذلك لا يعرف باطنه . ولم يكلف القضاة فى سفك الدماء وإباحة الفروج طلب شهود يعلمون صدقهم بل من يظنون صدقه . واذا جاز سفك دم بظن يحتمل الخطأ وهو ظن صدق الشهود ، فلم لا تجوز الصلاة بظن شهادة الأدلة عند الاجتهاد ؟ وليت شعرى ماذا يقول رفقاؤك فى هذا ؟ يقولون اذا اشتبهت عليه القبلة يؤخر الصلاة حتى يسافر إلى الامام ويسأله ، أو يكلفه الاصابة التى لا يطيقها ، أو يقول اجتهد لمن لا يمكنه الاجتهاد إذ لا يعرف أدلة القبلة وكيفية الاستدلال بالكواكب والجبال والرياح ! قال لا أشك فى أنه يأذن له فى الاجتهاد ثم لا يؤثمه إذا بذل كنه مجهوده وإن أخطأ أو صلى

إلى غير القبلة . قلت فاذا كان من جعل القبلة خلفه معذوراً مأجوراً فلا يبعد أن يكون من اخطأ فى سائر الاجتهادات معذوراً ؛ فالمجتهدون ومقلدوهم كلهم يشاركون المصيبين فى أحد الأجرين ، فمناصبهم معذورون ؛ بعضهم مصيبون ما عند الله وبعضهم متقاربة ، وليس لهم أن يتعاندوا وأن يتعصب بعضهم مع بعض لا سيما والمصيب لا يتعين ، وكل واحد منهم يظن أنه مصيب ؛ كما لو اجتهد مسافران فى القبلة فاختلفا فى الاجتهاد فحقهما أن يصلى كل واحد منهما إلى الجهة التى غلبت على ظنه ، وأن يكف إنكاره وإعراضه واعتراضه على صاحبه لأنه لم يكلف الا استعمال موجب ظنه . أما استقبال عين القبلة عند الله فلا يقدر عليه ؛ وكذلك كان معاذ فى اليمن يجتهد لا على اعتقاد أنه لا يتصور منه الخطأ ، لكن على اعتقاد أنه إن أخطأ كان معذوراً ؛ وهذا لأن الأمور الوضعية الشرعية التى يتصور أن تختلف بها الشرائع يقرب فيها الشىء من نقيضه بعد كونه مظنوناً فى سر الاستبصار . وأما ما لا تتغير فيه الشرائع فليس فيه اختلاف . وحقيقة هذا الفصل

تعرفها من أسرار اتباع السنة ، وقد ذكرته فى الفصل العاشر من الأعمال الظاهرة من كتاب جواهر القرآن.

(وأما الصنف الثالث) وهم أهل الجدل فانى أدعوهم بالتلطف إلى الحق ، وأعنى بالتلطف ألا أتعصب عليهم ولا أعنفهم ، لكن أرفق وأجادل بالتى هى أحسن . وكذلك أمر الله تعالى رسوله . ومعنى المجادلة بالأحسن أن آخذ الأصول التى يسلمها الجدل وأستنتج منها الحق بالميزان المحقق على الوجه الذى أوردته فى كتاب «الاقتصاد فى الاعتقاد» وإلى ذلك الحد . فإن لم يقنعه ذلك لتشوفه بفطنته إلى مزيد ، كشف رغبته إلى تعليم الموازين . فان لم يقنعه لبلادته وإصراره على تعصبه ولجاجه وعناده ، عالجته بالحديد ، فإن الله سبحانه جعل الحديد والميزان قرينى الكتاب ليفهم منه أن جميع الخلائق لا يقومون بالقسط إلا بهذه الثلاث . فالكتاب للعوام ، والميزان للخواص ، والحديد الذى فيه بأس شديد للذين يتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ولا يعلمون أن ذلك ليس من شأنهم وأنه لا يعلم تأويله إلا الله

والراسخون فى العلم دون أهل الجدل . وأعنى بأهل الجدل طائفة فيهم كياسة ترقوا بها عن العوام ولكن كياستهم ناقصة إذ كانت الفطرة كاملة لكن فى باطنهم خبث وعناد وتعصب وتقليد ، فذلك يمنعهم عن إدراك الحق ، وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً . لكن لم تهلكهم إلا كياستهم الناقصة فإن الفطنة البتراء والكياسة الناقصة شر من البلاهة بكثير . وفى الخبر أن أكثر أهل الجنة البله ، وأن عليين لذوى الألباب ؛ ويخرج من جملة الفريقين الذين يجادلون فى آيات الله وأولئك أصحاب النار ، ويزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وهؤلاء ينبغى أن يمنعوا من الجدل بالسيف والسنان كما فعل عمر رضى الله عنه برجل إذ سأله عن آيتين متشابهتين فى كتاب الله تعالى فعلاه بالدرة . وكما قال مالك رضى الله عنه لما سئل عن الاستواء على العرش فقال : الاستواء حق والايمان به واجب والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة . وحسم بذلك باب الجدال وكذلك فعل السلف كلهم . وفى فتح باب الجدال ضرر عظيم

على عباد الله تعالى . فهذا مذهبي في دعوة الناس إلى الحق وإخراجهم من ظلمات الضلال إلى نور الحق . وذلك بأن دعوة الخواص إلى الحكمة بتعليم الميزان ، حتى إذا تعلم الميزان القسط لم يقدر به على علم واحد بل على علوم كثيرة ، فان من معه ميزان فانه يعرف به مقادير أعيان لا نهاية لها ، كذلك من معه القسطاس المستقيم فمعه الحكمة التى من أوتيها فقد أوتى خيراً كثيراً لا نهاية له . ولولا اشتمال القرآن على الموازين لما صح تسمية القرآن نوراً ، لأن النور ما يبصر بنفسه ويبصر به غيره وهو نعت الميزان ؛ ولما صدق قوله : ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ؛ فان جميع العلوم غير موجودة فى القرآن بالتصريح ولكن موجودة فيه بالقوة لما فيه من الموازين القسط التى بها تفتح أبواب الحكمة التى لا نهاية لها .فبهذا أدعو الخواص ؛ ودعوت العوام بالموعظة الحسنة بالاحالة على الكتاب والاقتصار على ما فيه من الصفات الثابتة لله تعالى . ودعوت أهل الجدل بالمجادلة التى هى أحسن . فان أبى أعرضت عن مخاطبته و كففت شره ببأس السلطان والحديد المنزل مع الميزان .

فليت شعرى الآن يا رفيقى بم يعالج إمامك هؤلاء الأصناف الثلاثة ؟ أيعلم العوام فيكلفهم ما لا يفهمون ويخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أو يخرج الجدال من أدمغة المجادلين بالمحاجة ولم يقدر على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كثرة محاجة الله تعالى فى القرآن مع الكفار ؟ فما أعظم قدرة إمامك إذ صار أقدر من الله تعالى ومن رسوله ! أو يدعو أهل البصيرة إلى تقليده وهم لا يقبلون قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتقليد ولا يقنعون بقلب العصا ثعباناً بل يقولون وهو فعل غريب ولكن من أين يلزم منه صدق فاعله ؟ وفى العالم من غرائب السحر والطلسمات ما تتحير فيه العقول ولا يقوى على تمييزه المعجزة عن السحر والطلسم إلا من عرف جميعها وجملة أنواعها ليعلم أن المعجز خارج عنها ، كما عرف سحرة فرعون معجزة موسى عليه السلام إذ كانوا من أئمة السحرة . ومن الذى يقوى على ذلك ؟ بل أهل البصيرة يريدون مع المعجزة أن يعلموا صدقه من قوله كما يعلم متعلم الحساب من نفس الحساب

صدق أستاذه فى قوله إنى حاسب . فهذه هى المعرفة اليقينية التى بها يقنع أولو الألباب وأهل البصائر ولا يقنعون بغيرها البتة . وهم إذا عرفوا بمثل هذا المنهاج صدق الرسول عليه الصلاة والسلام وصدق القرآن وفهموا موازين القرآن كما ذكرت لك ، وأخذوا منه مفاتيح العلوم كلها مع الموازين كما ذكرته فى كتاب جواهر القرآن ، فمن أين يحتاجون إلى إمامك المعصوم ؟ وما الذى حل من إشكالات الدين ؟ وعن ماذا كشف عن غوامضه ؟ قال الله تعالى (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه). وقد سمعت الآن منهاجى فى موازين العلوم، فأرنى ماذا اقتبسته من غوامض العلوم من إمامك إلى الآن . وما الذى يتعلمون منه ؟ وليت شعرى ما الذى تعلمت من إمامك المعصوم أرنى ما رأيتها ؟

فليس الغرض من الدعوة إلى المائدة مجرد الدعوة دون الأكل والتناول منها . وإنى أراكم تدعون الناس إلى الامام ثم أرى المستجيب أمامك بعد الاستجابة على جهله الذى كان قبله . لم يحل له الامام عقداً بل ربما عقد له حلا و لم تفده استجابته

له علما ، بل ربما زاد به طغياناً وجهلا . فقال : قد طالت صحبتى مع رفقائى ولكن ما تعلمت منهم شيئاً إلا أنهم يقولون عليك بمذهب التعليم وإياك والرأى والقياس فإنه متعارض مختلف . قلت : فمن الغرائب أن يدعو إلى التعليم ثم لا يشتغلوا بالتعليم . فقل لهم قد دعوتمونى إلى التعليم فاستجبت فعلمونى ما عندكم . فقال : ما أراهم يزيدوننى على هذا شيئاً . قلت : فإنى قائل أيضاً بالتعليم وبالامام وببطلان الرأى والقياس وأنا أزيدك على هذا لو أطقت ترك التقليد ، تعليم غرائب العلوم وأسرار القرآن ؛ فاستخرج لك منه مفاتيح العلوم كلها ، كما استخرجت منه موازين العلوم كلها ، على ما أشرت إلى كيفية انشعاب العلوم كلها منه فى كتاب جواهر القرآن ، لكنى لست أدعو إلى إمام سوى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا إلى كتاب سوى القرآن ، فمنه أستخرج جميع أسرار العلوم . وبرهانى على ذلك لسانى وبيانى . وعليك إن شككت تجريبى وامتحانى . أفترانى أولى بأن يتعلم منى من رفقائك أم لا ؟ » انتهى .

وهكذا يتضح لك كيف حمل الغزالى على مذهب أهل التعليم ونقضه من أساسه ، مبيناً — كما رأيت — خطأ فكرة الإمام المعصوم ، وأنه لا إمام للمسلمين معصوماً سوى محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ولكن التعليمى ما كان ليقر بهزيمته أمام الغزالى ، وحيال ما أبداه له حجة الاسلام من صادق البراهين والحجج والآيات ، فهو يسأله بعد هذا كله :

— «(١) ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ؛ ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة والاختلافات المتقابلة لم يلزمه الاصغاء اليك دون خصمك ، ولك خصوم يخالفونك ولا فرق بينك وبينهم ؟» .

فيجيبه الغزالى :

«هذا أولا ينقلب عليك ، فانك إذا دعوت هذا المتحير إلى نفسك فيقول المتحير : بم صرت أولى من مخالفيك ، وأكثر أهل العلم يخالفونك ؟ فليت شعرى بماذا تجيب بأن تقول إمامى منصوص عليه ! فمتى يصدقك فى دعوى النص ، وهو لم يسمع

(١) منقذ .

النص من الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ وإنما لم يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك . ثم هب أنه سلم النص ، فاذا كان متحيراً فى أصل النبوة فقال : هب أن إمامك يدلى بمعجزة عيسى عليه السلام ، فيقول : الدليل على صدقى أنى أحيي أباك وأحياه ، فناطقنى بأنى محق ، فبماذا أعلم أنه صدقه ولم تعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشكلة ما لا يرفع إلا بدقة النظر العقلى ؛ والنظر العقلى لا يوثق به عندك ؛ ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف السحر والتمييز بينه وبين المعجزة ، وما لم يعرف أن الله لا يضل عباده ، وسؤال الاضلال وعسر الجواب عنه مشهور ، فبماذا تدافع جميع ذلك ولم يكن إمامك أولى بالمتابعة من مخالفيه ؟» .

وهنا يعلن الغزالى ، أن هذا السؤال قد انقلب على التعليمية انقلاباً عظيما «لو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جواباً لم يقدروا عليه» .

ثم يقرر أن علة منشأ الفساد ، وظهور زبد مذهب أهل التعليم وكان الأحرى به أن يذهب جفاء ، هو

ضعف الجماعة التى تصدت لمناظرة هؤلاء « فلم يشتغلوا بالقلب بل بالجواب . وذلك مما يطول فيه الكلام ولا يسبق سريعاً إلى الأفهام ، فلا يصلح للافحام » .

ولكن الغزالى يأخذ هنا حيطته ، حذر أن يقول له قائل « فهذا هو القلب . فهل عنه جواب ؟ » .

فيجيبه الغزالى :

« نعم : جوابه أن المتحير إن قال أنا متحير ولم يعين المسألة التى هو متحير فيها ، يقال له : أنت كمريض يقول أنا مريض ولا يذكر عين مرضه ويطلب علاجه . فيقال له : ليس فى الوجود علاج للمرض المطلق بل لمرض معين من صداع أو سعال أو غيرهما . فكذلك المتحير ينبغى أن يعين ما هو متحير فيه . فان عين المسألة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة التى لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق الذى يوثق بكل ما يوزن به فيفهم الميزان ، ويفهم أيضاً منه صحة الوزن ، كما يفهم متعلم الحساب نفس الحساب ، وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب وصادقاً فيه» .

وقد عرفت شرح هذا الكلام فيما سبق أن نقلناه لك عن الغزالى من كتابه «القسطاس المستقيم»

ومما يلزم التنويه به هنا ، هو أن الغزالى لم يقصد مما ذكره فى «منقذه» عن مذهب أهل التعليم ، بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكر ذلك فى كتب أخرى خصها لذلك الغرض ، وهى «المستظهرى» وكتاب حجة الحق ، وكتاب مفصل الخلاف ، وكتاب الدرج المرقوم بالجداول ، ثم كتاب القسطاس المستقيم ؛ وهذا قد نقلنا لك فصلا منه ساقتنا اليه الضرورة ، كما رأيت . ولكن كان قصد الغزالى حين أشار إلى التعليمية فى «منقذه من الضلال» هو ما بينه بنفسه :

«المقصود أن هؤلاء ليس معهم شىء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء» .

لقد ظهر عجز أهل ذلك المذهب عن إقامة البرهان على تعيين الامام ، فماذا فعل الغزالى معهم ، وحجتهم عنده ، كما ترى ، داحضة ؟

سيتمشى معهم – رغم ذلك – حتى النهاية ، فيجاريهم ويصدقهم «فى الحاجة إلى التعليم وإلى

المعلم المعصوم » . سيستدرجهم من حيث لا يعلمون !

إنه يسألهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم ، ويثنى الضربة بأخرى ، إذ يعرض عليهم إشكالات «فلم يفهموها ، فضلا عن القيام بحلها» .

لقد افتضح أمرهم ، وظهر عجزهم كما ترى ، ولكنهم سيتصرفون بما هو أغرب وأعجب .

«فلما عجزوا أحالوا على الامام الغائب ، وقالوا لا بد من السفر اليه » !

فحق للغزالى إذن ، أن يعجب لحال هؤلاء . يضيعون العمر فى طلب المعلم ، ويتبجحون بالظفر به ، وهم لا يتعلمون منه شيئاً أصلا «كالمضمخ بالنجاسة يتعب فى طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله وبقى مضمخاً بالخبائث» .

وقد وجد الغزالى من ادعى شيئاً من علم هؤلاء ، فماذا كان حاصل ما ذكره ؟

«شيئاً من ركيك فلسفة فيثاغورث ، وهو رجل من القدماء الأوائل ، ومذهبه أرك من مذاهب الفلاسفة ، وقد رد عليه ارسطاطاليس بل استرك

كلامه واسترذله ، وهو المحكى فى كتاب إخوان الصفا ، وهو على التحقيق حشو الفلسفة» .

وإن تعجب فاعجب مع الغزالى لذلك الشخص الذى «يتعب طول العمر فى طلب المعلم ، ثم يقنع بمثل ذلك المعلم الركيك المستغث ويظن أنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم» !

ولكن الغزالى لن يكون ذلك الشخص . لقد جربهم وسبر ظاهرهم وباطنهم فاذا مرجع حاصلهم هو «استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ومجادلتهم فى إنكارهم الحاجة إلى التعليم ، بكلام قوى مفحم حتى اذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد وقال هات علمه وأفدنا من تعليمه وقف وقال : الآن إذا سلمت لى هذا فاطلبه فانما غرضى هذا القدر فقط ؛ إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حل أدنى المشكلات ، بل عجز عن فهمه فضلا عن جوابه» !

ذلك مبلغهم من العلم . وهو علم لا يرضى به عاقل ، فضلا عمن يسعى وراء ذلك العلم الأسمى ،

العلم اليقيني ! فكان شأن الغزالى مع التعليمية ما هو منتظر ، أن ينفض اليد عنهم ايضا .

تلك هى المرحلة الثالثة التى قطعها الغزالى فى شوطه صوب العلم اليقينى . تبقى المرحلة الرابعة والأخيرة ، فإلى طريق الصوفية .

الفصل الثامن

طريق الصوفية

« ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتى على طريق الصوفية » .

لقد مر الغزالى بوادى الفلاسفة ، وعلم الكلام ، ومذهب أهل التعليم – على ما رأيت – فلم يسكن إلى واد منها ، يجد فيه شفاء لما فى نفسه ، من رغبة جامحة تدفعه إلى طلب الحقيقة . وعلى ذلك لم يبق أمامه إلا الطريق الرابع والأخير : طريق الصوفية . فليلجه بسلام إذ هو أمله الأخير ، لأن الحق – كما قال – لا يعدو هذه الطرق الأربع «فإن شذ الحق عنهم فلا يبقى فى درك الحق مطمع» .

فأقبل الغزالى بهمته – على حد تعبيره – على طريق الصوفية . وهنا يعلن أن طريقة هؤلاء إنما تتم بعلم وعمل .

فما هو حاصل علمهم ؟

«قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله» .

وعلى ذلك وقف الغزالى ينظر ، أمامه طريقان متشعبان : علم وعمل ، فبأيهما يبدأ ؟

«وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم » .

فطالع كتبهم . قرأ قوت القلوب لأبى طالب المكى ، وما ألفه الحارث المحاسبى ، وما أثر عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى من متفرقات ، وغير ذلك كثير . ووعى كلام مشايخهم حتى وصل إلى الدرجة التى يعلنها فى منقذه من أنه أصبح مطلعاً «على كنه مقاصدهم العلمية» .

ويقول كذلك «وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع » .

فما أفاد الغزالى من هذه الخبرة العلمية ؟

لقد ظهر له أن «أخص خواصهم ما لا يمكن

الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق ، والحال ، وتبدل الصفات» .

ويضرب لذلك أمثلة بليغة فيقول :

«كم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان ، وبين أن يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران . بل السكران لا يعرف حد السكر ، وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شىء . والصاحى يعرف حد السكر وأركانه وما معه شىء من السكر . والطبيب فى حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصحة . فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه ، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا» .

خلص للغزالى إذن أن الصوفية إنما هم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال . وقد حصل من طريقهم كل ما يمكن تحصيله بطريق العلم ، وبقى «ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك » .

وهنا يقرر الغزالى أنه قد حصل معه من العلوم التى مارسها وما سلكه من مسالك فى التفتيش عن – صنفى العلوم الشرعية والعقلية – ماذا ؟

«إيمان يقينى بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر» .

وأن هذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت فى نفسه «لا بدليل معين محرر بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها» .

وقد ظهر للغزالى أنه لا مطمع له فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، والتغلب على نفسه بكفها عن هواها .

ولكن كيف السبيل ؟

أن يقطع علاقة قلبه بالدنيا ، وذلك «بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى» .

ولكن حتى يتم له ذلك ، ماذا يتحتم عليه ؟

أن يعرض عن المال وعن الجاه ، وأن يهرب من الشواغل والعوائق .

لقد حدد الغزالى الهدف ، ورسم الطريق ، ولم يبق عليه إلا اجتيازه ، وكما يُعد المسافر حقائبه قبل

اجتياز الطريق ، ويتفقد لوازم السفر ، ما ينقصه وما يحتاج إليه ، أخذ الغزالى يتفقد أحواله «فإذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من الجوانب» .

ثم أخذ يلاحظ أعماله وأحسنها التدريس والتعليم «فإذا أنا مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة » .

والنية – هل ينساها الغزالى ؟

لا ، إنما الأعمال بالنيات ، والغزالى يريد الآن الآخرة ، فهو مقبل على دور محاسبة نفسه ، فإذا كانت نيته فيما يعمل لله رضى ، وإن لم تكن كذلك ، فعليه أن يتلافى الأحوال ، وعلى ذلك أخذ يتفكر فى نيته فى التدريس «فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت » .

فأيقن أنه على شفا جرف هار . لقد أشفى على النار . إذن وجب عليه أن يشتغل بمعالجة نفسه للخلاص ، قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال .

وعلى ذلك لبث الغزالى مدة يفكر وهو بين عاملين يتجاذبانه : زهد فى الدنيا ، ورغبة فيها ،

ما يكاد يصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال فيقدم رجله ، حتى ينحل عزمه فينكص على عقبيه ، ولا تكاد تصدق له رغبة فى طلب الآخرة بكرة «إلا ويحمل عليه جند الشهوة فيفترها عشية» .

إنهما الخير والشر يتطاحنانه ، وسنرى لمن يكون الغلب أخيراً . حفت الدنيا بالشهوات ، وقد خلق الانسان ضعيفاً . وللشهوات سلاسل أخذت تجذب الغزالى إلى المقام .

ولكن منادى الايمان أخذ ينادى «الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟» .

فعندما يسمع الغزالى منادى الايمان يهتف له بهذا ، لا يسعه إلا أن يستجيب له .

«فتنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار» ولكن الشيطان ما يلبث أن يعاوده ، مجدداً كرته ،

فيقول له الوسواس الخناس ، موسوساً فى صدره :

«هذه حالة عارضة ، وإياك أن تطاوعها فهى سريعة الزوال . فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى من التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ، ربما ألفت إليه نفسك ولا يتيسر المعاودة» .

وهكذا لبث الغزالى يتردد بين «تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة» .

ولكن الأمر ما لبث أن جاوز أخيراً حد الاختيار إلى الاضطرار ، لأن الله سبحانه كان قد كتب فى لوح الأزل ، أن يكون الغزالى من عباده الذين اصطفى واجتبى ، فقر عزم الغزالى على السفر . وسيكون ذلك السفر إيذاناً ببدء عهد جديد فى حياة الغزالى ، بل فى تاريخ التصوف المجيد .

ولكن ما الذى حدث حتى قر عزم الغزالى نهائياً على ذلك السفر ، بعد ما رأينا كيف طال تردده بين الشهوة فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ؟

لذلك أسباب عدة ، والله قد جعل لكل شىء

سبباً ، يتبع سبباً ، وقد كان ، إذا اعتقل الله لسانه عن التدريس ؛ وسدى يجاهد نفسه أن يرجع للتدريس ولو يوماً واحداً ، يطيب فيه قلوب المختلفين إليه ؛ بيد أن لسانه ما كان يستطيع التلفظ بكلمة !

وبدهى أن تورثه هذه العقلة فى اللسان ، حزنا وأسى فى القلب . ونتج من ذلك أن بطلت قوة الهضم عنده ، وزهد فى الطعام والشراب «فكان لا ينساغ لى شربة ، ولا ينهضم لى لقمة» .

ومن كان ذلك شأنه ، فلا بد أن تضعف قواه ، فضعف وذبل ، وخيف على خفقة فى السراج ، يلفظها ثم لا يسطع . وهنا يجتمع الأطباء ويعلنون يأسهم من حالته .

«وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، إلا أن يتروح السر عن الهم الملم» .

أحس الغزالى عجزه المطلق ، فلم يسعه إلا أن يلتجىء إلى الله تعالى «التجاء المضطر الذى لا حيلة له» فأجابه الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل

عليه - كما يقول - الاعراض «عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب» . فانتوى السفر إلى الشام والاقامة به ، ولكنه خشى إن هو أظهر نيته تلك ، أن يقف ضد رغبته الخليفة والأصحاب .

هل إلى خروج من سبيل ؟

هنا واتته فكرة . فأعلن أنه إنما يريد الخروج إلى مكة . ثم أخذ يعمل الحيلة حتى استطاع الخروج من بغداد ، فأخرجه الله منها مخرج صدق ، وقد انتوى ألا يعود اليها أبدا .

فلا تسل عن اللوم كيف أخذ ينصب عليه من كل جانب . لقد لامه أهل العراق كافة «إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الاعراض عما كنت فيه سببا دينيا ؛ إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم» .

وأخذ الناس يستنبطون كما يحلو لهم . فالبعيدون عن العراق يظنون أن الغزالى ما اعتزم الرحيل إلا وقد شعر الجفوة من الولاة . «وأما من قرب من الولاة فكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى والانكباب على وإعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم .

فيقولون : هذا أمر سماوى وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العلم» .

وهكذا فارق الغزالى بغداد ، وخرج مهاجراً فى سبيل الله ، بعد أن فرق ما كان معه من مال دون أن يدخر شيئاً سوى ما ذكره «قدر الكفاف» وقوت الأطفال » .

ثم أدخل الله الغزالى الشام مدخل صدق ، فأقام به زهاء سنتين .

فتعال بنا نسأل حجة الاسلام فيما قضاهما ؟

– « فى العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس ، وبتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية» .

– وماذا كنت تفعل ؟

« كنتِ أعتكف مدة فى مسجد دمشق ؛ أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى » .

– وهل ألقيت عصاك فى دمشق واستقر بك النوى ؟

«لقد رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل اليوم الصخرة وأغلق بابها على نفسى» .

– ولم غادرت بيت المقدس بعد ذلك إلى الحجاز ؟

«لقد تحركت فى داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه» .

– لقد عرفنا سبب سفرك للحجاز ، ولكن لم نعرف لم عدت لوطنك ثانية بعد أن فارقته معتزماً عدم العودة اليه ؟

«جذبتنى الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه» .

– فلم آثرت العزلة أيضاً بعد رجوعك إلى الوطن ؟

«حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر » .

– وهل استطعت أن تنعم بالخلوة كما ينبغى ؟

«لقد كانت حوادث الزمان ومهمات العيال

وضرورات المعيشة تغير فى وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو الحال إلا فى أوقات متفرقة ، لكن مع ذلك لا أقطع الطمع منها ، فتدفعنى عنها العوائق وأعود اليها» .

– كم ابثت على ذلك الحال ؟

«دمت على ذلك مقدار عشر سنين» .

– كنت تبغى الكشف من وراء هذه الخلوات فهل أعطيته ؟

«انكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها» .

– هلا ذكرت لنا قدرا ينتفع به ؟

«علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى ، خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أذكى الأخلاق بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم

يجدوا اليه سبيلا ، فان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » .

– فما أول شرائط هذه الطريقة ؟

«تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى» .

– فما مفتاحها ؟

«مفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بذكر الله» .

– فما آخرها ؟

«الفناء بالكلية فى الله تعالى . وهذه آخرها بالاضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها ، وهى على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهلير للسالك فيه» .

– ومن أين تبتدىء المكاشفات والمشاهدات ؟

«من أول الطريقة ، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ،

ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق» .

– هل لك أن تعبر لنا عنها حتى تقربها من أذهاننا ؟

«لا يحاول المعبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه . وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول . وكل ذلك خطأ وقد بينا وجه الخطأ فيه» .

– فى أى كتبك بينت هذا الخطأ ؟

«فى كتاب المقصد الأقصى»

– هلا زدتنا شيئا ، فأنت ممن ذاق فعرف ؟

«وكان ما كان مما لست أذكره
فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر»

– إذن ما ترى فيمن لم يرزق من ذلك شيئا بالذوق ، وهل يدرك حقيقة النبوة ؟

«من لم يرزق منه شيئاً بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم» .

– وما تقول فى كرامات الأولياء ؟

«هى على التحقيق بدايات الأنبياء . وكان ذلك

أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب : إن محمداً عشق ربه» .

– تقول إذن إن تلك حالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها ، فمن لم يرزقه فكيف يكون سبيله اليها ؟

«يتيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر الصحبة معهم حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقينا . فمن جالسهم استفاد منهم هذا الايمان ؛ فهم القوم لا يشقى جليسهم» .

– هذا فيمن رزق صحبتهم ، فكيف يعلم ذلك من لم يرزق صحبتهم ؟

«يعلم ذلك يقينا بشواهد البرهان» .

– فان كان لا يعلم من شواهد البرهان شيئا ، فأين يجد ما يعرفه إياها ؟

«فى كتاب عجائب القلب من كتاب الأحياء» .

– فاذكر لنا الآن شيئاً ولو يسيراً عن التحقيق بالبرهان .

«التحقيق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن

إيمان . وهذه ثلاث درجات (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)» .

– ومن وراء هؤلاء ؟

«وراء هؤلاء قوم جهال هم المنكرون لأصل ذلك، المتعجبون من هذا الكلام ؛ يسمعون ويسخرون ، ويقولون العجب أنهم كيف يهذون . وفيهم قال الله تعالى (ومنهم من يستمع اليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ... فأصمهم وأعمى أبصارهم» .

– لقد مارست طريقة الصوفية ، فهل بان لك شيء بالضرورة من هذه الممارسة ؟

«حقيقة النبوة وخاصيتها» .

– فهل لك أن تذكر لنا قولا فى حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق اليها ؟

«اعلم أن جوهر الانسان فى أصل الفطرة خلق خالياً ساذجاً لا خبرة معه عن عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى كما قال (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وإنما خبره عن العالم

بواسطة الادراك ، وكل إدراك من الادراكات خلق ليطلع الانسان به على عالم من الموجودات ، ونعنى بالعالم أجناس الموجودات . فأول ما يخلق فى الانسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناسا من الموجودات كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة وغيرها ، واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً ، بل هى كالمعدومة فى حق اللمس . ثم يخلق له البصر ، فيدرك به الألوان والأشكال وهو أوسع عوالم المحسوسات . ثم ينفتح له السمع ، فيسمع الأصوات والنغمات . ثم يخلق له الذوق كذلك . إلى أن يجاوز عالم المحسوسات فيخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده ، فيدرك فيه أموراً زائدة على عالم المحسوسات لا يوجد منها شيء فى عالم الحس . ثم يترقى إلى طور آخر ، فيخلق له العقل فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات وأموراً لا توجد فى الأطوار التى قبله . ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون من المستقبل ، وأموراً

أخرى العقل معزول عنها ، كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز . وكما أن المميز له لو عرض عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها ، وذلك عين الجهل ، إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد فى حقه فيظن أنه غير موجود فى نفسه . والأكمه لو يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والأشكال وحكى له ذلك ابتداء لم يعلمها ولم يقربها . وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة وهى النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحا وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير ، وهذا لو لم يمر به الانسان من نفسه وقيل له إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب لأنكره وأقام البرهان على استحالته وقال : القوى الحساسة أسباب الادراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها فبألا يدركها مع ركودها أولى وأحق . وهذا نوع قياس يكذبه

الوجود والمشاهدة . فكما أن العقل طور من أطوار الآدمى يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات الحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور ، يظهر فى نورها الغيب وأمور لا يدركها العقل . والشك فى النبوة إما أن يقع فى إمكانها أو فى وجودها ووقوعها ، أو فى حصولها لشخص معين»

– فما هو دليل إمكان النبوة ؟

«دليل إمكانها وجودها»

– وما دليل وجودها ؟

«وجود معارف فى العالم لا يتصور أن تنال بالعقل كعلم الطب والنجوم . فان من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا يدركان إلا بالهام إلهى وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل اليها بالتجربة . فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا فى كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ؟ وكذلك خواص الأدوية . فتبين بهذا البرهان أن فى الامكان وجود طريق لادراك هذه الأمور التى لا يدركها العقل وهو المراد بالنبوة ، لاأن النبوة عبارة عنها فقط ،

بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل أحد خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها ، وما ذكرناه قطرة من بحرها ، وإنما ذكرناها لأن معك أنموذجا منها وهو مدركاتك فى النوم ، ومعك علوم من جنسها فى الطب والنجوم وهى معجزات الأنبياء ، ولا سبيل اليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلا» .

– وكيف يدرك ما عدا هذا من خواص النبوة ؟

«يدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف»

– وكيف فهمت هذا ؟

«بأنموذج رزقته وهو النوم ، ولولاه لما صدقت به . فان كان للنبى خاصية ليس لك منها أنموذج فلا تفهمها أصلا فكيف تصدق بها ، وإنما التصديق بعد التفهم» .

– ومتى يحصل ذلك الأنموذج للسالك ؟

«يحصل فى أوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصديق بما لا يحصل بالقياس اليه»

– وما قيمة هذه الخاصية الواحدة ؟

«إنها تكفيك للايمان بأصل النبوة» .

– فان وقع لى الشك فى شخص معين أهو نبى أم لا فكيف يحصل يقينى ؟

«لا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع . فانك إذا عرفت الطب والفقة يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم . ولا تعجز أيضا عن معرفة كون الشافعى رحمه الله تعالى فقيهاً ، وكون جالينوس طبيباً معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير ، بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما فيحصل لك علم ضرورى بحالهما . فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثر النظر فى القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضرورى بكونه صلى الله عليه وسلم على أعلى درجات النبوة ، واعضد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم . وكيف صدق فى قوله : من أعان ظالماً سلطه الله عليه . وكيف صدق فى قوله : من أصبح وهمومه هم واحد كفاه الله تعالى

هموم الدنيا والآخرة . فاذا جربت ذلك فى ألف وألفين وآلاف حصل لك علم ضرورى لا تمارى فيه » .

– لقد رسمت لى هذا الطريق لأطلب منه اليقين بالنبوة ، فلم لا أطلبه من المعجزات المادية ؟

« بل من ذلك الطريق فاطلب اليقين بالنبوة ، لا من قلب العصا ثعبانا ، وشق القمر ، فان ذلك إذا نظرت اليه وحده ولم تنضم اليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ربما ظننت أنه سحر وتخييل ، وأنه من الله إضلال ، فانه (يضل من يشاء ويهدى من يشاء) » .

– فإن كان مستند إيمانى فى مسألة المعجزة كلاماً منظوماً فى وجه دلالتها ؟

« ينجزم إيمانك بكلام مرتب فى وجه الأشكال والشبهة عليها . فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن فى جملة نظرك حتى يحصل لك علم ضرورى لايمكنك ذكر مستنده على التعيين ؛ كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث

لا يدرى ولايخرج من جملة ذلك ولايتعين للآحاد فهذا هو الإيمان القوى العلمى » .

– عرفتنا طريق الإيمان القوى العلمى بمالامزيد عليه ، بقى الذوق ، فما سبيلنا اليه ؟

« أما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد ، ولايوجد إلا فى طريق التصوف » .

– هلا زدتنا شيئاً فى حقيقة النبوة ؟

« هذا القدر من حقيقة النبوة كاف فى الغرض الذى أقصده الآن » .

وسيذكر لنا حجة الإسلام فى الفصل المقبل وجه الحاجة اليه . فحسبنا هذا ولانثقل عليه بأكثر من ذلك ، ولنذهب معه إلى الفصل الآتى فنسأله : لم عاد إلى نشر العلم بعد أن أعرض عنه ؟

الفصل التاسع

لماذا عاد الغزالى الى نشر العلم بعد الاعراض عنه؟

— كم سنة قضيتها فى العزلة ؟ وماذا فتح الله به عليك أثناء ذلك ؟ .

«واظبت على العزلة والخلوة قريبا من عشر سنين ، وبان لى فى أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا أحصيها مرة بالذوق ومرة بالعلم البرهانى ومرة بالقبول الإيمانى ، أن الإنسان خلق من بدن وقلب . وأعنى بالقلب حقيقة روحه التى هى محل معرفة الله دون اللحم والدم الذى يشارك فيه الميت والبهيمة . وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة ولاينجو (إلا من أتى الله بقلب سليم) وله مرض فيه هلاكه الأبدى الأخروى كما قال تعالى (فى قلوبهم مرض) ، وأن الجهل بالله سم مهلك ، وأن معصية

الله بمتابعة الهوى داؤه الممرض ، وان معرفة الله تعالى ترياقه المحيي وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه المشفي ، وأنه لا سبيل إلى معالجته بازالة مرضه وكسب صحته إلا أدوية ، كما لا سبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك . وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بان لي على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء لايدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل . وكما أن الأدوية تركبت من النوع والمقدار فبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلب مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ، فلا يخلو عن سر من الأسرار هو من

قبيل الخواص التي لا يطلع عليها إلا بنور النبوة » .

– ولكن هل للعقل أن يستنبط حكمة لها ؟

« لقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة أوظن أنها ذكرت على الاتفاق لا عن سر إلهي فيها يقتضيها بطريق الخاصة . وكما أن في الأدوية أصولا هي أركانها وزوائد هي متمماتها لكل منها خصوص تأثير في أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات. وعلى الجملة فالأنبياء أطباء أمراض القلوب » .

– إذن ما فائدة العقل وما موقفه هنا ؟

« فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك مايدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسلم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . وإلى هنا مجرى العقل ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه » .

– وكيف اتفق لك معرفة هذه الأمور كلها ؟

« وهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى

المشاهدة فى مدة الخلوة والعزلة . ثم رأينا فتور الاعتقادات فى أصل النبوة . ثم فى حقيقة النبوة ، ثم فى العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق » .

– ألم تحاول معرفة العلة فى ذلك ؟

« لقد نظرت فى أسباب فتور الخلق وضعف إيمانهم ، فإذا هى أربعة : سبب من الخائضين فى علم الفلسفة ، وسبب من الخائضين فى طرق التصوف ، وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم ، وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس » .

– وماذا فعلت حتى ثبت لك أن مرجع العلة هذه الأسباب الأربعة ؟ .

« تتبعت مدة آحاد الخلق أسأل من يقصرمنهم فى متابعة الشرع وأسأله عن شبهته ، وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له : مالك تقصر فيها ؟ فان كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ، فانك لاتبيع الاثنين بواحد؛ فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟ وإن كنت لا تؤمن به فأنت كافر فدبر نفسك فى طلب الإيمان

وانظر ما سبب كفرك الخفى الذى هو مذهبك باطنا ، وهو سبب جرءتك ظاهراً ، وإن كنت لاتصرح به تجملا بالإيمان وتشرفا بذكر الشرع . فقائل يقول هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك . فلان بين المشاهير لايصلى ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف وأموال اليتامى، وفلان يأكل أدرار السلطان ولايتحرز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ، وهلم جرا إلى أمثاله .

« وقائل ثان يدعى علم التصوف ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة .

« وقائل ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة ، وهؤلاء هم الذين ضلوا عن طريق أهل التصوف

« وقائل رابع لقى أهل التعليم فيقول : الحق مشكل والطريق إليه منسد ، والاختلاط فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من البعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الرأى ، والداعى

إلى التعلم متحكم لاحجة له ، فكيف أع اليقين إلى الشك ؟

« وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ، ولكنى قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال فى الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل فى حجر التكليف ، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير بها مستغن فيها عن التقليد . هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلهيين منهم ، ونعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبى النصر الفارابى ، وهؤلاء هم المتجملون منهم بالإسلام » .

— لكن عرفنا فى هؤلاء من يقرأ القرآن ، ويحضر الجماعات والصلوات ، فماذا تقول فى ذلك ياحجة الإسلام ؟

« إنه يعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر وأنواعا من الفسق والفجور» .

— فاذا قيل لمثل هذا الشخص : أن كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلى ؟

« يقول رياضة الجسد ، وعادة أهل البلد ! وحفظ المال والولد » .

— فإذا كان ممن يعترفون بأن الشريعة صحيحة والنبوة حق ، ولكنه مع ذلك يشرب الخمر ، وسئل لم يشربها وهو يعلم بتحريمها فماذا يجيب ؟

« يقول : إنما نهى عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء وأنا بحكمتى محترز عن ذلك ، وإنماأقصد به تشحيذ خاطرى » .

— قد سمعنا عن ابن سينا أنه فعل شيئاً من هذا القبيل ، فهلا قصصت علينا أيها الإمام العظيم مافعل؟

« ذكر فى وصية له كتب فيها أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ، ولايقصر فى العبادات الدينية والبدنية ، ولايشرب الخمر تلهيا بل تداويا وتشافيا ! فكان منتهى حالته فى صفاء الإيمان والتزام العبادات أن استثنى شرب الخمر لغرض التشفى ! فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم » .

— فماذا كان أثر هؤلاء الذين ذكرتهم فى الناس؟

« انخدع بهم جماعة ، وزادهم انخداعاً ضعف اعتراض المعترضين عليهم » .

– وماذا فعل هؤلاء المعترضون ؟

« اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق وغير ذلك مما هو ضرورى لهم على ما نبهنا عليه من قبل » .

– لقد كنت طبيباً عرفت علة الداء ، وهذا لا يكفى ، فواجب الطبيب أن يقدم الدواء ، أوقفت بعد ذلك مكتوف اليدين ، أم ماذا فعلت ؟

« لما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب ، ورأيت نفسى ملبة بكشف هذه الشبهة حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندى من شربة ماء لكثرة خوضى فى علومهم ، أعنى الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمترسمين من العلماء ، انقدح فى نفسى أن ذلك متعين فى هذا الوقت محتوم » .

– صدقت أيها الإمام الجليل ، فماذا تفيدك الخلوة ، وبماذا تنفعك العزلة ، وثم داء عم ، وأطباء مرضى ، وخلق على الهلاك مشرفون ؟ أتراك ترددت فى النزول إلى الميدان أم نزلت دون فكر ولا روية ؟

« ترددت وقلت فى نفسى : ومتى تستقل أنت

بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنى تقاومهم وكيف تعايشهم ، ولايتم ذلك إلا بزمان مساعد وسلطان متدين قاهر » ؟

– لقد فضلت العزلة إذن ؛ فكيف أبحتها لنفسك والحالة ما قد وصفت ؟

« ترخصت بينى وبين الله تعالى بالاستمرارعلى العزلة تعللا بالعجز عن إظهار الحق بالحجة » .

– فماذا جدّ بعد ذلك حتى تركت عزلتك ونهضت إلى نيسابور ؟

« قدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه لابتحريك من خارج ، فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور لتدارك هذه الفترة » .

– أما كان فى استطاعتك التخلف ؟

« بلغ الإلزام حداً كان ينتهى لو أصررت على الخلاف إلى حد الوحشة » .

– لقد كنت فى حاجة إلى السلطان المساعد كما

قلت ، وهاهو ذا قد هيأه الله لك الآن ، فماذا تقول فى رخصتك السابقة ؟

« إن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغى أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص نفسك بعسر مقاساة الخلق والله تعالى يقول :(بسم الله الرحمن الرحيم . ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه :(ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين) ويقول عز وجل :(بسم الله الرحمن الرحيم. يس والقرآن الحكيم) إلى قوله (إنما تنذر من اتبع الذكر) .

– أتركت عزلتك إذن بمجرد أن خطر لك ذلك ، أم عملت بقوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) وبقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) فحاولت أن تستهدى مع رأيك رأياً ؟

« شاورت فى ذلك جماعة من أرباب القلوب ، والمشاهدات » .

– وبماذا أفتوك ؟

« اتفقوا على الإشارة بترك العزلة والخروج عن الزاوية ، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة . وقد وعد الله سبحانه باحياء دينه على رأس كل مائة » .

– فماذا كان أثر ذلك فى نفسك ؟

« استحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسّر الله تعالى الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم » .

– وما تاريخ ذلك ؟

« فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة » .

– ومتى كان خروجك من بغداد ؟

« فى ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائه » .

– تكون قد لبثت فى عزلتك إذن إحدى عشرة سنة !

« وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها إنقداح فى القلب فى هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال مما يخطر إمكانه أصلا بالبال .والله تعالى مقلب القلوب والأحوال ، وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » .

– لقد عدت إذن إلى نشر العلم بعد أن أعلنت عزوفك عنه ، فكيف كان ذلك ؟

« أنا وإن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت ؛ فإن الرجوع عود إلى ما كان . وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه وأدعو اليه بقولى وعملى ، وكان ذلك قصدى ونيتى ».

– فإلى أى نوع من العلم تدعو الآن إذن ؟

« إلى العلم الذى به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه . هذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى « يعلم الله ذلك منى » .

– وماهى بغيتك من ذلك ؟

« أن أصلح نفسى وغيرى » .

– وهل تعتقد أنك ستصل إلى ما أردت ، وما أردته الصعب ؟

« لست أدرى أ أصل إلى مرادى أم أخترم دون غرضى ، ولكنى أومن إيمان يقين ومشاهدة أن (لاحول ولاقوة إلا بالله العظيم) وأنى لم أتحرك ، ولكنه حركنى ؛ وأنى لم أعمل لكنه استعملنى ؛ فأسأله أن يصلحنى أولا ثم يصلح بى ، ويهدينى ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقاً ويرزقنى اتباعه ، ويرينى الباطل باطلا ويرزقنى اجتنابه » .

• • •

وهكذا يتضح لنا لماذا عاد الغزالى إلى نيسابور ينشر العلم ثانية بعد أن أقلع عن نشره زماناً .

لقد كان يطلب العلم لغير الله ، فأبى العلم إلا أن يكون لله . والله متم نوره ، وهاد من يشاء إلى صراط مستقم .

الفصل العاشر

طريق الارشاد عند الغزالى

– لقد ذكرت أسباب ضعف الإيمان ، ونريد منك أن تذكر لنا الآن طريق إرشاد الخلق وإنقاذهم قبل أن يهلكوا . ولتبدأ بأولئك الذين كانوا لأهل التعليم ضحية .

« أما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من أهل التعليم ، فعلاجه ما ذكرناه فى كتاب القسطاس المستقيم ولانطول بذكره (١) » .

– وماذا تقول فيما توهمه أهل الإباحة ؟

« لقد حصرنا شبههم فى سبعة أنواع ، وكشفناها فى كتاب كيمياء السعادة » .

– فماذا ترى فيمن جنت على إيمانه الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة ؟

(١) يراجع ما سبق ذكره فى فصل التعليمية .

« لقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم وغيرهما. وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك ،وإنما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم لأنه من نفس علمهم ، ونحن نبين لكل عالم بفن من العلم كالنجوم والطب والسحر والطلمسات مثلا من نفس علمه برهان النبوة».

– وما نقول فى الذى أثبت النبوة بلسانه وسوى أوضاع الشرع على الحكمة ؟

« هو على التحقيق كافر بالنبوة ، وإنما هو مؤمن بحكيم له طالع مخصوص يقتضى طالعه أن يكون متبوعا . وليس هذا من النبوة فى شىء » .

– فما الإيمان بالنبوة إذن ؟

« الإيمان بالنبوة أن يقر باثبات طور وراء العقل تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة » .

– ولم لا يستخدم عقله فى الوصول إلى هذه المدركات الخاصة ؟

« العقل معزول عنها كعزل السمع عن إدراك الألوان ، والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات » .

– إذن فأنت ترى أن ههنا أموراً خواص لايدور تصرف العقل حواليها أصلا ؟

« بل يكاد العقل يكذبها ويقضى باستحالتها » .

– هلاّ ضربت لها مثلا يقربها من أفهامنا ؟

« إن وزن دانق من الأفيون سم قاتل لأنه يجمد الدم فى العروق لفرط برودته ، والذى يدعى علم الطبيعة يزعم أن ما يبرد من المركبات إنما يبرد بعنصرى الماء والتراب فهما العنصران الباردان . ومعلوم أن أرطالا من الماء والتراب لا يبلغ تبريدهما فى الباطن إلى هذا الحد . فلو أخبر طبعى بهذا ولم يجربه لقال هذا محال والدليل على استحالته أن فيه نارية وهوائية، والهوائية والنارية لاتزيده برودة ، فنقد الكل ماء وترابا فلا يوجب هذا الافراط فى التبريد . فإن إنضم اليه حاران فبأن لا يوجب أولى ، ويقدر هذا برهانا، وأكثر براهين الفلاسفة فى الطبيعيات والإلهيات مبنى على هذا الجنس » .

– ولم كان أكثر براهين الفلاسفة فى هذين مبنياً على هذا الجنس ؟

« لأنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه ،

وعقلوه ، وما لم يألفوه قدروا استحالته . ولولم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة وادعى مدع أنه عند ركود الحواس يعلم الغيب ، لأنكره المتصرفون بمثل هذه العقول . ولو قيل لواحد هل يجوز أن يكون فى الدنيا شىء هو مقدارحبة يوضع فى بلدة فيأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه فلا يبقى شىء من البلدة ومافيها ولا يبقى هو فى نفسه ؟ لقال هذا محال وهو من جملة الخرافات . وهذه حالة النار ، وينكرها من لم ير النار إذا سمعها » .

– نعرف أن أكثر عجائب الآخرة من هذا القبيل ، فماذا نحن قائلون للطبيعى حتى نقنعه ؟

« نقول للطبيعى : قد اضطررت إلى أن تقول فى الأفيون خاصية فى التبريد ، ليس على قياس المعقول بالطبيعة ، فلم لا يجوز أن يكون فى الأوضاع الشرعية من الخواص فى مداواة القلوب وتصفيتها ما لايدرك بالحكمة العقلية ، بل لا يبصر ذلك إلا بعين النبوة »؟

– ولكن أتراهم يعترفون بمثل هذه الخواص العجيبة ، ويسلمون بها آمنين !

« بل قد اعترفوا بخواص هى أعجب من هذا

فيما أوردوه فى كتبهم ، وهى من الخواص العجيبة المجربة فى معالجة الحامل التى عسر عليها الطلق بهذا الشكل :

ب	ط	د
و	ه	ج
و	ا	ح

٢	٩	
٧	٥	٣
٦	١	٨

يكتب على خرقتين لم يصبهما الماء وتنظر اليهما الحامل بعينيها وتضعهما تحت قدميها فيسرع الولد فى الحال إلى الخروج . وقد أقروا بإمكان ذلك ، وأوردوه فى كتاب – عجائب الخواص – وهو شكل فيه تسعة بيوت يرقم فيها رقوم مخصوصة يكون مجموع ما فى جدول واحد خمسة عشر ، قراءته فى طول الشكل ، أو فى عرضه ، أوعلى التأريب فيا ليت شعرى من يصدق ذلك ثم لا يتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين والظهر بأربع والمغرب بثلاث هى الخواص غير معقولة بنظر الحكمة . وسببها اختلاف هذه الأوقات ، وربما تدرك هذه

الخواص بنور النبوة ! . والعجب أنا لو غيرنا العبارة على عبارة المنجمين لعقلوا اختلاف هذه الأوقات، فنقول : أليس يختلف الحكم فى الطالع بأن تكون الشمس فى وسط السماء أو فى الطالع أو فى الغارب حتى يبنوا على هذا فى تسييراتهم اختلاف العلاج ، وتفاوت الأعمار والآجال. ولا فرق بين الزوال وكون الشمس فى وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس فى الغارب ؛ فهل لتصديقه سبيل إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم لعله جرب كذبه مائة مرة ولا يزال يعاود تصديقه حتى لو قال المنجم : إذا كانت الشمس فى وسط السماء ونظر اليها الكوكب الفلانى والطالع هو السرج الفلانى فلبست ثوبا جديداً فى ذلك الوقت قتلت فى ذلك الثوب . فإنه لا يلبس الثوب فى ذلك الوقت وربما يقاسى فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم قدعرف كذبه مرات ؟ . فليت شعرى من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ، ويضطر إلى الاعتراف بأنها خواص معرفتها معجزة بعض الأنبياء، كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبى صادق مؤيد بالمعجزات لم يعرف قط بالكذب ؟ . وإذا نظر

فى إمكان هذه الخواص فى أعداد الركعات ورمى الجمار وأركان الحج وسائر تعبدات الشرع لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلا » .

— هذا حسن ؛ ولكن هب أنه قد اعترض عليك بأنه قد جرب من النجوم شيئاً ، وبالمثل من الطب شيئاً ، فوجد بعضه صادقاً ، لذا انقدح فى نفسه تصديقه وسقط من قلبه استبعاده ونفرته ؛ أما هذا الذى ذكرته فهو لم يجربه بعد ، فبم يعلم وجوده وتحققه ، وإن كان يقر لك بأنه من الممكنات ؟

« أقول إنك لا تقتصر على تصديق ماجربته ، بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع أقوال الأولياء ، فقد جربوا وشاهدوا الحق فى جميع ماورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك » .

— فإذا لم أجرب ذلك فكيف أومن به ؟

« يقضى عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعا »

— ولم ؟

« لأنا لو فرضنا رجلا بلغ وعقل ولم يجرب المرض فمرض وله والد مشفق حاذق بالطب يسمع دعواه

معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء فقال هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك ، فماذا يقتضيه عقله وإن كان الدواء مرا كريه المذاق؟ أيتناول أو يكذب ويقول أنا أعقل مناسبه هذا الدواء لتحصيل الشفاء ولم أجربه ؟ » .

– لا شك أنى أستحمقه إن فعل ذلك !

« وكذلك يستحمقك أهل البصائر فى توقفك » .

– ولكن بم أعرف شفقة النبى وأنه لهذا الطب من العارفين ؟

« وبم عرفت شفقة أبيك وليس ذلك أمراً محسوساً ؟ » .

– عرفت بقرائن أحواله وشواهد أعماله فى مصادره وموارده ، علما ضروريا ليس فيه من تمار.

« ومن نظر فى أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ورد من الأخبار ، فى اهتمامه بارشاد الخلق ، وتلطفه فى حق الناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى مايصلح به دينهم ودنياهم ، حصل له علم ضرورى بأن شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده . وإذا نظر

إلى عجائب ما ظهر على يديه من الأفعال ، وإلى عجائب الغيب التى أخبر بها فى القرآن على لسانه ، وفى الأخبار إلى ما ذكره فى آخر الزمان وظهور ذلك كما ذكره ، علم علما ضروريا أنه بلغ الطور الذى وراء العقل . وانفتحت له العين التى ينكشف منها الغيب الذى لايدركه إلا الخواص ، والأمور التى لايدركها العقل. فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضرورى بصدق النبى عليه الصلاة والسلام » .

– لقد بينت المنهاج أحسن بيان . فما هى نصيحتك لى بشأنه حتى أرى آياته فى الآفاق وفى نفسى ، ومن ثم يتبين لى أنه الحق ؟

« جرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار . تعرف ذلك بالعيان » .

– هل من زيادة ؟

« هذا القدر يكفى فى تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة اليه فى هذا الزمان » .

– بقيت لنا عندك مسألة ؛ فقد ذكرت أن من أسباب ضعف الإيمان ، سوء سيرة العلماء . فهم قدوة الناس . هم كالعود والناس كالظل ، وهل

يستقيم الظل والعود أعوج ؟ إن ذاك مرض ، فهلا عرفتنا للخلاص منه طريقاً ؟

« يداوى هذا المرض بثلاثة أمور » .

— ماهى ؟

« أحدها أن تقول له : إن العالم الذى تزعم أنه يأكل الحرام ، معرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر والربا ، بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة . وأنت تعرف ذلك وتفعله لا لعدم إيمانك بأنه معصية بل لشهوتك الغالبة عليك. فشهوته كشهوتك وقد غلبته كما غلبتك ، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ولايناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين . وكم من مؤمن بالطب لايصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد وإن زجره الطبيب عنه ؟ ولايدل ذلك على أنه غير ضار أوعلى أن الإيمان بالطب غير صحيح ، فهذا محمل هفوة العلماء » .

— فما الأمر الثانى ؟

« أن يقال للعامىّ : ينبغى أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه فى الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيه ويكون شفيعاً له حتى يتساهل معه فى أعماله لفضيلة

علمه وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه فهويجوز أن يكون زيادة درجة له وهو ممكن . فهو وإن ترك العمل يدلى بالعلم . أما أنت أيها العامى إذا نظرت اليه وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل ، فتهلك بسوء عملك ولاشفيع لك » .

— بقى الأمر الثالث :

« وهو الحقيقة . إن العالم الحقيقى لا يقارف معصية » .

— صدقت ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، ولكن إن زل وفعلها ؟

« فعلى سبيل الهفوة ، ولايكون مصراً على المعاصى أصلا » .

— فما موقف العلم الحقيقى من المعصية ؟

« العلم الحقيقى ما يعرّف أن المعصية سم مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا . ومن عرف ذلك لا يبيع الخير بما هو أدنى » .

— فكيف يحصل هذا العلم ؟

« لا يحصل بأنواع العلوم التى يشتغل بها أكثر الناس ، فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على

معصية الله تعالى ، وأما العلم الحقيقى فيزيد صاحبه خشية وخوفاً » .

— صدقت ، إنما يخشى الله من عباده العلماء .

« وذلك يحول بينه وبين المعاصى إلا الهفوات التى لا ينفك عنها البشر فى الفترات » .

— فهل تدل تلك الهفوات على نقص فى الإيمان ؟

« ذلك لا يدل على ضعف الإيمان ، فالمؤمن مفتن توّاب ، وهو بعيد عن الاصرار والاكباب » .

— قد بلغت أيها الإمام ، فلك شكر أخيك فى الدين ، ولك الشكر كله بلسان العارفين ، وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم .

ليت شعرى ، إن لم يؤمنوا بمثل هذا الحديث (فبأى حديث بعده يؤمنون ؟) فادع الله يا حجة الإسلام ، لنا دعوة تكون مسك الختام .

« نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وأرشد إلى الحق وهداه ، وألهمه ذكره حتى لاينساه ، وعصمه من شر نفسه حتى لا يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه (١) » .

(١) هذا ختام المنقذ ، وقد آثرنا أن نجعله ختاما لكتابنا كذلك تيمناً بهذه الدعوة الصالحة من ذلك الامام الخالد .

فهرست